صورة المرأة في الرواية الإسلامية (عمالقة الشمال) و(عذراء جاكرتا) للكيلاني نموذجاً

أ. د عماد الدين خليل *

بمرور الوقت أخذت المرأة تحظى بحضور ملحوظ في الأعمال الإبداعية الإسلامية المعاصرة: شعراً ورواية وقصة قصيرة.. إلخ..

وكان هذا الحضور يتخذ صيغ المباشرة حيناً، أو الانزياح والترميز حيناً آخر. ويتنوع من جهة أخرى لكي يتعامل مع المرأة المسلمة: أماً وزوجة وابنة وأختاً، ويتابعها في تحوّلاتها الزمنية من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة.

يتحدث عنها باقتضاب حيناً وبسخاء أحياناً. وفي كل الأحوال فإن المساحات التي محّضت للمرأة في الأدب الإسلامي المعاصر، أخذت - بمرور الوقت- تزداد اتساعاً وتنطوي على تجارب وخبرات خصبة غنية تتطلب متابعة ودراسة لتحديد الملامح الأساسية للمرأة في الأدب الإسلامي المعاصر.

وثمة صيغ عديدة لمتابعة الموضوع والإمساك بخيوطه كما هو واضح في المحاور والمفردات التي سيعالجها المشاركون في هذا الملتقى، ومن ثم فإن هذه الصفحات ستكتفي بمتابعة صورة المرأة المسلمة في روايتين للكيلاني (رحمه الله) حظيتا بقدر كبير من الانتشار والقبول لما تضمنتاه من قيم فنية، والتزامهما - كعادة الكيلاني في رواياته التي سمّاها: الإسلامية - بهموم الأمة وهي تواجه تحديات الصليبية والصهيونية والاستعمار وأعاصير الشيوعية، والإلحاد، وهما: (عمالقة الشمال) و(عذراء جاكرتا).

(*) أديب وناقد عراقي معروف، عمل أستاذاً في كلية الآداب بعدد من الجامعات العربية، في الموصل ودبي والزرقاء الأهلية بالأردن.

تدور حوادث الروايتين في بيئتين مختلفتين في المكان (نيجيريا في أفريقيا وأندونيسيا في آسيا) متميزتين في الزمان (مرحلة الستينات حيث بلغت تحديات الصليبية والشيوعية عنفوانها)، ورغم أن الكيلاني أمسك جيداً بالتفاصيل التاريخية في الحالتين، وبخصوصيات المكان بالنسبة للرواية الأولى، إلاّ أنه لم يُولِ اهتماماً كافياً لهذا الجانب في روايته الأخرى ولهذا ظل فضاؤها بحاجة إلى المزيد من الصدق الفني وتجاوز اللمسات التجريدية الصرفة.

ومع ذلك فإنه قدر على التعويض عن هذا بكثافة الحدث، وتدفّقه، وزخمه، وبتأجيج الصراع بين لحظة وأخرى وتصعيده إلى نقطة التوتّر القصوى، الأمر الذي يدفع القارئ إلى مواصلة القراءة حتى الصفحات الأخيرة، دون اكتراث - أحياناً - بالدقائق والتفاصيل، فالذي يهمّه هو تكشّف المصير إزاء صراع غير متكافئ بين الأطراف.

* * *

ولقد كان للمرأة في الروايتين دور ملحوظ في هذا كلّه: تدافع الأحداث، وتأجيج الصراع، وانتظار المصير.

صحيح أن الكيلاني في معظم رواياته أعطى للمرأة مساحة واسعة، لكنه هناك سحبها باتجاه الحالات الرومانسية المألوفة على الأغلب، إنما هنا فقد أراد لها أن تكون قطب الرحى، ومنحها دوراً مؤثراً في صميم الحبكة لا يحتاج اكتشافه إلى كبير عناء.

الزمن الروائي يلتقي في الحالتين عند منتصف الستينات وفي بيئة مسلمة تجابه تحدياً من نوع ما: نيجيريا قبالة الصليبية، وأندونيسيا قبالة الشيوعية. ونقطة التوتر الأساسية في الروايتين تنبثق عن هذا التحدي الذي يتصاعد حتى يبلغ الأوج بانتصاره على القوى والقيادات الإسلامية، وتربّعه في قمة السلطة، واعتماده العنف والتصفية والعزل والاعتقال والإبعاد لسحق الخصم والتفرد بالسلطان ثم ما تلبث «الضربة» التي تنسجها إرادة الله سبحانه من خلال هذا القائد أو ذاك، وهذه الفئة أو تلك، أن تنزل بالفئة المغتصبة وتعيد الحق إلى أصحابه، وتقضي على التحدّي الذي يستمد نسغه وقوّته من خارج الأرض، بالتفكك والتلاشي.

هذا ينعكس على الأبطال المحوريين والثانويين في الروايتين. وما يقوله أو يفعله كل منهم يعبِّر عن جزئية ما، فعلاً أو ردّ فعل، لتيار عام يجتاز في الحالتين صعود المنحنى ثم ما يلبث أن ينحدر ويتلاشى لكي يفسح الطريق لعودة القوى المقهورة إلى مراكز القيادة والسلطان.

والمرأة في الروايتين تمارس دوراً ملحوظاً، بل إنها في (عذراء جاكرتا) (والعنوان يحمل دلالته على البنية الفنية للرواية) تصير هي البطل المحوري، وهو ما تتفرّد به هذه الرواية - أغلب الظن- من بين أعمال الكيلاني كافة. بل إننا قد لا نجد في هذا التراث الروائي العربي المعاصر قاطبة.

فاطمة في (عذراء جاكرتا) هي الشخصية المحورية التي تدور بها وعليها الحبكة كلها، والتي محضت لها المساحات الأوسع من السرد والحوار. بينما هي هناك في (عمالقة الشمال) تحتل موقعاً ما، وهو على امتداد مساحاته، لا يجعل من جاماكا (الممرضة) بطلة محورية، إذ قد أعطى الدور ابتداءً للتاجر الداعية: عثمان أمينو. أما في (عذارء جاكرتا) فإن فاطمة: الفتاة الجامعية التي تنتمي لجماعة (ماشومي) الإسلامية؛ تحتل مكانها عنصراً محورياً.

هناك - بطبيعة الحال- عناصر نسائية أخرى في الروايتين، ولكنها لا تعدو أن تكون بمثابة (المزايا) التي تعكس هموم البطل (أو البطلة) سلباً أو إيجابا. وهي- في كل الأحوال- عناصر متمّمة لمطالب الحبكة القصصية، وهذه العناصر أكثر عددا ووضوحاً وفاعلية في (عذراء جاكرتا) منها في (عمالقة الشمال)، كما أنهن أعطين مساحة أوسع بكثير: تانتي زوجة عيديد الزعيم الشيوعي الأندونيسي، مورني خليلة أونتونغ قائد الحرس الجمهوري، جميلة: العضوة الناشطة في منظمة (قيرواني) المحسوبة على الشيوعيين. وليس ثمة في (عمالقة الشمال) بعد جاماكا، سوى مدام علية صاحبة فندق في الحيّ العربي في لاجوس.

وثمة جملة من النساء يقفن في الخط الثالث - إذا صحّ التعبير- يمارسن دوراً هامشياً يعتمده الروائي لتعميق الملامح الوضيئة للشخصيات الملتزمة، من خلال عرض النماذج المضادة المغرقة في سلوكها الهابط، بحيث إنهن يذكرن- غالباً- دون

تحديد لأسمائهن، فهن مجرد رموز لحالة التعهّر أو الانحلال التي تعاني منها المرأة، أو توظف لها، في البيئات غير الإسلامية: «.. بعض النسوة الإفرنجيات يمضين في الطريق كاشفات عن نحورهن أو أذرعهن، ويحملقن بنظراتهن دون حياء. وبعض الإفريقيات يقلدنهن.. أستغفر الله. وأغمضت عيني خجلاً.. لم أعد أرى إلاّ مواطئ قدمي، ولكزني صديقي (نور) قائلاً:

«إذا لم ترفع نظرك فقد تصطدم بإحداهن وتمسّ يدك لحمها»..

وضحك، بينما شعرت أنا بقشعريرة تسري في بدني، وتساءلت بيني وبين نفسي قائلاً: كيف نقاوم هذا الفساد كله؟»[١].

«ولاجوس في الليل تنضح بخطايا كثيرة، وراءها يكمن المخطط الصهيوني. هذه أندية القمار، وتلك خانات الرقص والخمر، وهناك بيوت الدعارة، وللأسف كثير من التجار يغرقون في خضم هذه الموبقات، وينزفون أرباحهم على مذبح الرذيلة، والعدو يشتري ويبيع ولكن كل شيء يعود إلى جيبه..»[٢].

«وفي النهاية قال زعيم القبيلة كلاماً فهمت منه أنه سوف يقدم لنا بعض نساء القبيلة كهدية طوال فترة الضيافة.. ولم يكن هذا غريباً عند بعض القبائل في الجنوب والشرق... غير أني قلت:

- «سيدي الزعيم.. نشكرك ونأسف عن تقبل هذه الهدية ».

نظر الزعيم إليّ في دهشة يخالطها غير قليل من الغضب:

- لماذا؟»

- «نحن مسلمون»

- «مسلمون؟».

- «نعم. وديننا يحرم هذا اللقاء ويعتبره غير شرعي.. لا استمتاع بالنساء، إلاّ في ظل الزواج».

---

(١) (عمالقة الشمال: ص٩) (الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة- دار النفائس، بيروت - دون تاريخ).
(٢) (عمالقة الشمال ص٤٢).

ضحك الزعيم وقال:

- «إذا فحيوانات الغابة أكثر حرية واستمتاعا منكم».

ابتسمت قائلاً:

- «هم حيوانات يا سيدي الزعيم والإنسان غير الحيوان»[١].

وفي (عذراء جاكرتا). نلتقي الشريحة نفسها: .. جاءت الفتاة - رفيقة أنتونغ - وقالت في تيه ودلال:

- «إن مجيء الرفيق عيديد.. أفسد علينا متعتنا»

ابتسم عيديد في رضى، هو يعلم أنها تنفذ الأوامر الصادرة من الحزب، بدقة، ثم همّ واقفاً وقال:

- «سأترككما الآن.. وسنكون على اتصال دائم»

لم يلتفت أنتونغ إليه، فقد كان مشغولا بفتاته التي طوقته بذراعيها الجميلتين، ثم سارت هي وأنتونغ وعيديد يرقبها من بعيد حتى دلفا إلى إحدى الحجرات. وعندما صارا وحدهما قال أنتونغ وهو يترنّح:

- «أنا لم أهزم قط في معركة حربية، ولم تهزمني امرأة».

ضحكت ضحكة خليعة وقالت:

- «أنت تبالغ.. المرأة لا يهزمها أحد».

نظر إليها كثور هائج وعيناه تتوهجان رغبة:

- «أنت لي يا مورني»

- «وشيوعية المال والنساء؟»

- «لكن..»[٢].

* * *

(١) (عمالقة الشمال ص٦٠-٦١).

(٢) (عذراء جاكرتا ص٢٨-٢٩) (وتنظر الصفحات ٨٢-٨٩،١٢٢) (الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة - دار النفائس، بيروت -١٩٧٤).

مهما يكن من أمر فإن «المرأة» في (عذراء جاكرتا)، رغم أنها تأخذ دور البطولة، فإن الروائي لا يكاد يصفها لنا، فيما عدا لمسات هنا وهناك تحكي عن احتشامها وهي تلتزم الحجاب، وجمالها الذي لايحاول أن يشخص ملامحه الأساسية كما يفعل الروائيون في الأعم الأغلب.

والمرجّح أن الكيلاني أرادها رمزاً للفتاة المسلمة التي تنذر نفسها للدعوة إلى الله، ومجابهة الضلال في مستوياته كافة. تنذرها إلى حدّ أن تصير مشروعاً للاستشهاد. ويكفي - في حالة كهذه - أن تسلّط الأضواء على المعطيات التي تعكس هذه الرؤية: الأفكار والقناعات والنبض الإيمابي الذي يعبّر عن نفسه من خلال الوسائط الفنية المختلفة: الحوار والحركة والمنولوج الداخلي. والفعل، وتحديد العلاقة مع الآخرين. ولا يجد الروائي ثمة ضرورة للتجسيد الذي ينسحب إلى الخط الثاني لكي يفسح المجال لرؤية تجريدية لامرأة أريد لها منذ البدء أن تعبّر عن حالة إسلامية مشبعة بالالتزام قبالة كل صنوف الغدر، والتآمر، والتحدي؛ والانزلاق والإغراء.

ورغم أن الكيلاني حاول في (عمالقة الشمال) أن يجعل من جاماكا رمزاً آخر يميل إلى التجريد.. رمزاً على التحوّل الذي يسوقه الحب الحلال إلى مواقع الإيمان والفاعلية، فيجعل من ممرضة نصرانية يتهافت حولها الرجال، داعية تمحّض نفسها لله، وزوجة مخلصة بارة، فإنه - أي الكيلاني - كساها، بلمسات بخيلة، ولكنها موحية، لحماً ودماً «كانت سمراء فاتنة، ذات عيون مكحولة»[1].

وقبالة هذا: ما الذي يتلقاه المخاطب عن ملامح (فاطمة)؟ لا شيء سوى أنها جميلة فحسب.

وفاطمة تبدأ رحلة الالتزام منذ اللحظات الأولى، فلا يهدأ لها بال أو يقر قرار قبل أن تؤول المجازفة الشيوعية إلى البوار، ويتحرّر الأب والخطيب من قبضة الجلاّدين. وهي - خلال ذلك - عبّرت أكثر من رغبتها بالتضحية بنفسها في سبيل القضية. الاستشهاد من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا. وقد كافأها الروائي -

(١) عمالقة الشمال، ص ١١ .

بالفعل - بأن منحها ماكانت تتمناه: «عاد أبو الحسن (خطيبها) وعاد حاجي محمد الديس (أبوها)، لكن فاطمة لم تعد إلاّ في صندوق خشبي، وملابسها البيضاء الطاهرة مخضبة بالدماء.. لقد انطلقت في الظلام رصاصة آثمة أودت بحياتها. سقطت عذراء جاكرتا شهيدة وفي يدها وردة حمراء ذات أشواك، وعلى ثغرها ابتسامة رضا، وفي جيبها مصحف صغير، تبلّل أهدابها الطويلة دمعة عشق خالد»[١].

في (عمالقة الشمال) ثمة مصير آخر (للبطلة): الالتحام بعثمان أمينو برابطة الزواج المقدّسة، والمضيّ معاً في الدعوة إلى الله..

والكيلاني يعرف كيف يحيل الحلم أو الأمنية إلى أمر واقع، ليس بالقفز الرومانسي في الفضاء، ولكن من خلال الشدّ والمقاومة والاكتواء بالنار: «القلب الشجاع لا يرهب مواجهة الواقع، والإيمان القوي لا يأنف من مخالطة المجذومين والمعذّبين والمنحرفين. الهروب رذيلة، ولا جدوى من الإصلاح إن لم أواجه الواقع. كانت رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي تدق آلات الطرب، وتجالس السكارى والسمّار والندمان، وتغني وترقص، ومن قلب النار المجنونة الحارقة خرجت. كأطهر ماتكون الأنثى.. وأحبّت الله.. وعاشت لمجد الإيمان والحقيقة.. وكانت امرأة.. وانتصرت على كل وساوس النفس وبريق الذهب، ودنيا المتعة والنعيم والمرح.. اختارت لقلبها أفراحاً من نوع جديد»[٢].

إن (سعيدة)، وهذا هو اسم (جاماكا) بعد إسلامها، تعبّر عن هذا التوق للمضيّ قدما، بعد أن ذاقت حلاوة الإيمان.. وزواجها بعثمان لن يكون حاجزاً يصدّها عن المضيّ في الطريق.. على العكس.. يصير دافعاً أشدّ إلحاحاً إلى العمل الذي لا يقف أمامه شيء.

وفي الحالتين: فاطمة وسعيدة.. الاستشهاد والاستمرار.. فإن المرأة تأخذ مكانها على خارطة الحياة الإسلامية المعاصرة، وتمارس دورها المؤكد في إعادة صياغة التاريخ. وهي (الظاهرة) التي طالما أكدت حضورها في العديد من أعمال الكيلاني الروائية:

---

(١) عذراء جاكرتا، ص ١٦٧ .

(٢) عمالقة الشمال، ص ٨ .

(قبيل منتصف الليل نظرت إليّ سعيدة بعينين يخالطهما النعاس.. وهمست في دهشة:

- «ماذا تريد؟».

- «ألا تعرفين؟».

- «كل ما أعرفه أن لديّ عملاً هنا يستغرق حوالي الشهر..».

- «وبعدها؟».

نظرت إلى وجهها يشرق بالسعادة:

- «وبعدها يا عثمان انطلق في أي اتجاه وستجدني وراءك حتى آخر الدنيا».

وأغمضت عينيها وهي تتكئ على منضدة خشبية معفّرة وقالت وهي في شبه حلم:

- «سيكون كل شيء على ما يرام.. وسنقيم أفراحاً تستمر أسبوعاً في قريتنا الحبيبة.. لقد وعدني الزعيم، كما وعدني أبي بأنهما سيباركان زواجنا.. عثمان أيها الحبيب الغالي.. سيكون أبناؤنا أسعد حالاً منا، وسندعو إلى الله في كل بقعة تطؤها أقدامنا»[1].

والحب في الروايتين يرتبط بالقضية، يتوحّد معها، ويصير دافعاً للمزيد من البذل والتضحية والعطاء: يقول الشيخ عبد الله لعثمان أمينو:

- «من يحب الله ورسوله يستطيع أن يحب خلقه.. حبهما هو المدخل، هو الحب الكبير الذي يظلل بأفرعه السَّامقة الخضراء كل الدنيا.. أتفهم؟. كل الدنيا».

ويردّ عثمان:

- «أشعر بالحيرة».

فيجيبه الشيخ:

«العبادة يا ولدي حب.. والجهاد في سبيل الله حب.. وتنفيذ شرع الله حب.. هل فهمت الحب؟»[1].

ويقول عثمان أمينو متحدثاً إلى نفسه:

---

(١) (عمالقة الشمال ص١٨٣ - ١٨٤).

(٢) (عمالقة الشمال ص ٣٣ - ٣٤).

«الحب الحقيقي يهب الإنسان طاقة هائلة تسخر من الخوف، ولا تكترث للمخاطر.. وحينما رأيتها تقدم تحت ستار الليل، والقمر يسطع في الأفق الصافي امتلأت بفيض من الأفراح لا يمكنني وصفها أو التعبير عنها»[١].

ويقول مخاطباً سعيدة:

«ها نحن نلتقي يا حبيبتي ووراءنا طريق طويل من الأشواك والدماء وأمامنا طريق آخر طويل لنبلغ الغاية.. طريق لا شك تحفّه المكاره.. والصراعات والأفاعي الماكرة.. لكننا بعون الله سننتصر.. قلب المؤمن يا حبيبتي تحنو له الجبال.. وينطلق في ظل الله لا يخاف وعداً أو وعيداً..»[٢].

وفي (عذراء جاكرتا) نلتقي بأبي الحسن (خطيب فاطمة) وحيداً في زنزانته، لكن خيال فاطمة ما يلبث أن يشرق عبر الصمت والأفكار المرهقة.. (وجهها يضيئ بالأمل.. المستقبل النضر، والغد المترع بالأحلام في طلعتها.. هي لي وأنا لها، وأنا على استعداد لأن أخوض بحار الأهوال، أو أقتحم لهيب النار، وأتصدى لحشود الموت وهي إلى جواري..»[٣].

إن الكيلاني لا يكتفي بتقديم المرأة المسلمة (النموذج) في طهرها والتزامها وتوحّدها، وإنما يمضي خطوة أبعد فيمنحها حضوراً مؤكداً في قلب الوقائع وصيرورة الأحداث.. عبر لحظات المصير الفاصلة. ليس هذا فحسب، بل إنه يجعل من «الحب» نفسه - كما رأينا - فرصة مناسبة للتعبير عن الشخصية الإسلامية للمرأة في وجهيها معاً: الزوجة التي تتفانى في محبة زوجها والاندماج في المحبوب.. والداعية التي تجد في الحب والزوج دافعاً للمزيد من البذل والعطاء في سبيل القضية التي يتوحّد في نبضها العاشق والمعشوق.

بمقارنة أولية بين (عمالقة الشمال) و(عذراء جاكرتا) يجد المرء نفسه في الأولى قبالة عمل فني أكثر إحكاماً، يتجاوز فيه الروائي المباشرة، ويعتمد لغة تقطر

(١) السابق ص ١٥٩ .
(٢) السابق ص ١٧٨ .
(٣) عذراء جاكرتا ص ٩٢ .

شاعرية فيما يذكرنا بعبارة الروائي الكولومبي غابرييل ماركيز من أن الرواية هي «في الأساس نقل شعري للواقع..» هذا إلى توظيف ضمير المتحدث من الداخل، والذي يقطع على السارد أية مداخلة من الخارج، فيما يقود العمل الروائي إلى نوع من الفضفاضية والترهل، بينما هو هنا يمنح العمل النسبة المطلوبة من التركيز والاقتصاد والرؤية المحددة داخل نسيج الخبرة الذاتية للبطل.

في (عذراء جاكرتا) نجد أنفسنا قبالة الروائي نفسه وهو يتعامل مع أبطاله وشخوصه بضمير المتحدّث العالم بكل شيء، ونلمح فيها قدراً ملحوظاً من المباشرة، وربما العجلة، التي تقود السرد إلى نوع من التضحّل، فيما يغيب - في معظم الأحيان - خفقان الشعر الذي يسري في شرايين (عمالقة الشمال) من بدئها حتى منتهاها.

ولقد انعكس هذا ولا ريب على (وضع) المرأة في الروايتين، بغض النظر عن المساحة التي احتلتها في كل منهما، .. على العكس.. إن المساحة الواسعة التي أعطيت لها في (عذراء جاكرتا)، وزحمة الأحداث، وتدافعها، والمشاركة الموصولة للبطلة في العديد من مفرداتها، لم تدع لها مجالاً - إلا في حالات محدودة - للعودة إلى الذات.. لنوع من الاستبطان الذي يتطلب حواراً (أو منولوجاً) داخلياً يغْني العمل الروائي، ويمنحه في الوقت نفسه نبضاً شعرياً.

ولم يغيّر استشهاد فاطمة في اللحظات الأخيرة من (عذراء جاكرتا) من الأمر شيئاً، بل لعلّ استشهادها نفسه ينطوي على قدر من الافتعال غير المبرّر، يلمس فيه المرء المدى الواسع الذي أعطاه الروائي لنفسه للختم على مصائر أبطاله.. بينما في (عمالقة الشمال) جاء المصير أكثر إقناعاً وأشد توافقاً مع تدفّق الحدث منذ لحظاته الأولى.

ثمة ما يجمع (البطلتين) ويفرّقهما، وهذه الأخيرة ضرورية لتجاوز النمطية في رسم المرأة المسلمة في الروايتين.

كلتاهما تمحّض نفسها لله.. فاطمة منذ البدء.. وجاماكا (أو سعيدة) منذ تحوّلها إلى ساحة هذا الدين، ليس بصيغة الفرار، أو التَعبّد المنعزل عن مجرى الحياة.. بل بالفعل الموصول في قلب الحياة حتى آخر لحظة.. فاطمة من خلال موقعها: طالبة

جامعية، وعضوة في حزب إسلامي كبير.. وسعيدة من خلال عملها ممرضة في المستشفيات.

فاطمة وسعيدة تفيضان أنوثة، رغم انهماكهما في الدعوة، وتربطهما بخطيبيهما مشاعر المحبة والعشق الجميل، والودّ الذي يتدفق بعذوبة وعفوية، حيثما اتخذ موقف أو دار حوار.

وفي هذا السياق يلمح المرء أن كلتا البطلتين لم تكن إزاء الرجل الذي أحبّته طرفاً سلبياً، بل إنهما في الحالتين عبرتا كل بطريقتها الخاصة، عن رغبتها في الارتباط بالرجل الذي أحبّته:

«وقفتُ وقلت:

- أرى أن نفترق.

نظرت إليّ بتحدّ وقالت ببساطة مذهلة:

- أنت في حاجة إلى امرأة.

- ماذا تعنين؟

- أريد أن أكون لك...

- ليس هذا وقت العبث والمزاح.

- أنا أعبر حقيقة عما يجيش في نفسي[1].

وفي (عذراء جاكرتا) نلتقي بالموقف نفسه مع تغيير - بطبيعة الحال - في زاوية الرؤية:

«وصمت أبوها لحظة، وكم كانت دهشته حينما سمع فاطمة تقول:

- أبتي..

- نعم..

(١) (عمالقة الشمال ص٢١).

- أريد أن أتزوج..

- تتزوجين؟..

- أعرف أنك قد أجّلت هذا الأمر.

- ممن تنوين الزواج؟..

- أبو الحسن.. زميلي في الكلية.. أنت تذكر أنه قد طلب يدي منك قبل ذلك»[١].

حضور المرأة ها هنا - ولعل الكيلاني تعمده قبالة قرون انسحاب المرأة من الحياة وغيابها - يذكرنا بحضورها منذ بدايات تاريخنا الذي ينطوي على مساحة مدهشة للمرأة.. فإن خديجة الكبرى رضي الله عنهما هي التي خطبت لنفسها محمد بن عبد الله ﷺ كما تؤكد المرويّات.

وإذا كان الكيلاني قد أعطى البطولة المحورية في (عذراء جاكرتا) للمرأة، ومنحها في (عمالقة الشمال) دوراً رئيسياً، فإن هاتين اللمستين المرسومتين بعناية، تحملان دلالتهما الواضحة على الحضور الذي أراده الروائي للمرأة في عمليه هذين.

وبموازاة الملامح المشتركة، هناك - ولا ريب - ما يفرّق بين سعيدة وفاطمة، فثمة في تأثيرات البيئة والتجربة ما يجعل كلاً منهما تختار أسلوبها في الحياة، فتكتسب شخصيتها من خلاله ملامحها الأساسية، وإن المرء ليكاد يلمس، ويرى، الملامح المختلفة في الاثنتين، رغم أن الكيلاني لم يحاول ذلك بصيغ مباشرة.. إلاّ أن مجمل المفردات السلوكية والعاطفية توحي بهذا، فتمنح الروايتين المزيد من الصدق الفني.

لقد بدأت (جاماكا) ممرضة، وظلت على وظيفتها هذه حتى اللحظات الأخيرة، رغم تحوّلها من الانحلال إلى الهدى، ومن النصرانية إلى الإسلام، الأمر الذي منح حركتها قدراً من الإنسانية وتجاوز بها القفزات الحادة، وجعلها تمارس قناعاتها الجديدة من خلال العمل الوظيفي نفسه الذي عرفت كيف تتقنه وتتوسل به في التعامل مع الآخرين.

---

(١) (عذراء جاكرتا ص ٣٣).

أما فاطمة فإن زخم الأحداث وعنف الأفعال تطلبت منها - على ما يبدو - ردود أفعال أكثر حدة وسرعة، دفعتها - أحياناً - إلى تجاوز بعض الثوابت من أجل تخليص الأب أو الخطيب من قبضة الخصوم حيناً، أو الانتقام من هؤلاء حيناً آخر. بل إن استشهادها المفاجئ نفسه، جاء متناغماً - ربما - مع هذا الإيقاع السريع.

وفي الحالتين، فإن الكيلاني، في روايتيه هاتين وضع المرأة المسلمة، عاملة كانت أم طالبة أم ربة بيت.. ابنة أم أختاً أم زوجة أم أمّاً، قبالة مسؤولياتها التي أرادها لها الله سبحانه في كتابه الكريم، وعبر جلّ آياته البيّنات التي انطوت على التكليف أو الإخبار أو السلوك، ورفعت خطابها إلى الإنسان ذكراً كان أم أنثى.

ويكفي أن نسترجع العديد من حلقات الروايتين، ومقاطعهما، لكي يتأكد لنا البعد الالتزامي فيهما، والدور المتألّق الذي يمكن أن تمارسه المرأة المسلمة على مدى جغرافية عالم الإسلام، وعبر عصوره كافة.

صورة المرأة في القصة الإسلامية

د. زينب محمد صبري بيره جكلي*

تعريف البحث:

كنت منذ أمد بعيد ينوف عن ربع قرن أتطلع إلى قصص إسلامي يتحدث عن المرأة حديث عفة ونزاهة، حديثاً يحضها على الخير لا على الرذيلة، وكانت نفسي تعاف ما يكتبه يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس وجورجي زيدان وأمثالهم ممن يشوهون صورة المرأة المسلمة في التاريخ، ويقدمون لبنات الجيل ما يقودهن إلى الانحراف.

واليوم.. ومع وجود الصحوة الإسلامية توافرت قصص نيّرة وخطّها أناس آمنوا بالله رباً، وبشريعته منهجاً وقد أوضح هؤلاء شخصية المرأة المسلمة اجتماعياً وسياسياً كما سيتضح من خلال هذا البحث بإذن الله.

المراد بالقصة الإسلامية:

كل قصة عبَّر فيها الأديب عن تجربة شعورية أحسها أو عايشها، ثم أفاض عليها من خياله، وأضفى عليها من عواطفه، وطور حوادثها وأنطق شخصياتها تبعاً لما يتطلبه الفن القصصي والمنهج الإسلامي، والأدباء عامة معلمو الشعوب، يروون التجارب بأشكال شتى، ويحركون مشاعر الناس تجاه ما يؤمنون به، والقصة بما أوتيت من حرية التعبير، ومن طاقة على الاستيعاب تستطيع أن تتغلغل في أعماق القارئ، وتتمكن من عقله وقلبه دون أن يحس بذلك، ومن هنا فقد اهتم بها أصحاب المذاهب الفكرية والاجتماعية والسياسية[1].

وللمرأة دورها في الحياة فهي نصف المجتمع، ومربية النصف الآخر، ولذلك كان لا بد من الاهتمام بها، وكان الإسلام أول من رعاها حق رعايتها، وكرمها حق تكريم،

(*) كاتبة سورية، أستاذة الأدب المساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الشارقة.

(١) من مقدمة المجموعة القصصية «الحلبة والمرآة» / ٥.

ولكن معظم كتاب القصة من الجيل السابق أغرقوا الأسواق بأحاديث عنها لا تسمن ولا تغني، بل كان بعضها يسوقها إلى الرذيلة، ويودي بها إلى الحضيض، ولذا كان لا بد للكتاب الإسلاميين من أن يسدوا هذه الثغرة، ويكتبوا قصصاً يبينون فيها أن المرأة ليست متعة ساعة، أو أداة تستخدم لغاية ارتآها الأبالسة، وإنما هي إنسانة ذات كرامة، هي أم وزوجة ومربية أولاد، وسواء أعركها الدهر ببلوى أم عاشت سعيدة هانئة فإنها تبقى نقية سوية بعيدة عن الشبهات والريبة، وإلا حل الضياع والدمار بها.

وسأبين في هذا البحث صورة المرأة في القصة الإسلامية ودورها الإيجابي والسلبي، اجتماعياً وسياسياً.

أولاً: صورة المرأة اجتماعياً:

وظيفة القاص المسلم هي تصوير الحياة والتعبير عنها من خلال إحساسه بها، تعبيراً إسلامياً يقود الأمة إلى الشعور بالأمان و«الفن العظيم أخلاقي دائماً في صميمه، وإن يكن جوهره الفني مختلفاً كل الاختلاف عن الوعظ المباشر»[١].

ولقد كانت القضايا الاجتماعية للمرأة من أهم ما عالجه كتاب القصة، إذ كشفوا من خلالها عن شخصية المرأة، زوجة كانت أم أماً، في أسرة إسلامية بعيدة عن الشبهات، وسأوضح هذا مبينة الفرق أحياناً بين ما خطته أيديهم، وما سطره غيرهم، وذلك بإيجاز لأن المقام لا يتسع للإطناب.

١- شخصية المرأة زوجة:

وهذه القضية من أهم ما عني به كتاب القصة الإسلامية، وقد عبروا عنها تعبيراً ينم عن إحساسهم بواقعها إحساساً واعياً، وكان الدكتور نجيب الكيلاني سابقاً في هذا الميدان، إذ تحدث عن اختيار الزوجة لشريك حياتها، ثم عن حياتها الزوجية في عدة قصص منها «ليلة زفاف» [٢] التي بين فيها مشاعر الأنثى التي تتزوج من رجل في مثل عمر جدها بأسلوب فني مؤثر، فليلى خطبت من تاجر لؤلؤ

(١) فن القصة / ١١، والقصة القصيرة / ٢٢ .

(٢) من مجموعته القصصية «الكابوس» / ٦٦ - ٧٣.

قد دب الفناء في أوصاله، وكان من قبل يسمى صقر الصحراء وقاهر الأمواج، وقد جاءها ليلة الزفاف «يعرج ويسعل ويلهث فنظرت إليه بعين الكارهة وقالت له:

- لماذا تزوجتني وأنا في سن حفيدتك؟

أجابها ببرود قاتل: - لأني أريد ذلك.

فقالت: - ولكني لا أريدك.

قال وهو ينهش فخذ خروف صغير: - لا يهم»[١].

فأخذت تنظر إليه نظرتها إلى وحش مفترس، أو ظالم أحمق، ثم ناقشته في قضية الزواج من الكفء فجن جنونه إذ لم يكن قد تعود على مناقشة النساء في رأي، فسخرت منه في خلاعة مصطنعة، فعجب من تسلطها، وجاءها بالعصا فدفعته، فوقع يلهث، وجاءت نسوة الدار فقال لهم:

«لا أريد هذه الشيطانة، اذهبوا بها لأبيها، هي طالق.. طالق.. طالق..

فجرت في الشارع حافية بثوب زفافها بعد أن شعرت أنها قضت في الكهف مئة عام لم تكن سوى ساعات قليلة[٢].

لقد استطاع الأديب من خلال تصويره لهذه الفتاة المليئة حيوية ونشاطاً، والتي تنكب برجل عجوز فتقاوم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً أن يصور لنا شريحة حية من الحياة الإنسانية يكثر أمثالها في الأوساط الفقيرة التي تحسب المال سبب السعادة، وقد مزج تصويره بعواطفه ومشاعره، وجعلنا ندرك مدى خطورة هذا الوضع الاجتماعي الذي يرتكبه بعض أولياء الأمور في حق فلذات أكبادهم، ولئن كان تصرف الفتاة لا يليق برجل كبير السن فإنه ينم أيضاً عن مشاعرها تجاه من أجبرت على الاقتران به، ويكشف حقيقةً للأهل علهم يتعظون فينأوا عن ارتكاب مثل هذه الجريرة في حق فتاة صغيرة العمر.

وللدكتورة «زينب بيره جكلي» قصص في هذا الميدان، منها قصة «الضياع[٣] التي توضح أثر الاختلاط السلبي بين فتيات الجيل وشبانه على قضية اختيار شريك

(١) من مجموعته القصصية «الكابوس» /٦٨ .
(٢) المرجع نفسه / ٧٣.
(٣) من المجموعة القصصية «شريد عفيف» / ٧٣ .

العمر، فالفتاة تظن وهي في غمرة علاقتها معه أنه أفضل رجل لها، ثم تكتشف الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان، وقد عرضت الأديبة هذا من خلال موقف مدرّسة من طالبة كانت تدعي التقدمية، وكان لها صديق يسامرها، وقد خطبها طمعاً بثروة أهلها وأبدى لها مشاعر حب كاذبة، وكانت مدرستها تنصحها باستمرار وتقول لها: «لو اخترت رجلاً صالحاً، وأضفيت عليه مشاعرك الرقيقة الفياضة لعشت العمر عمرين، وسوف يعجب بك الرجل لأنوثتك، فاختاري شريك حياتك ممن يدعون إلى الجنة، وابعدي عن أحمد فإنه يقودك إلى النار، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم» (١).

ولكن الهوى ساقها إلى الهاوية، وللانزلاق طرق شتى.. إذ انزاح الستار وبدأت المعاناة، ثم الطلاق والحرمان، وكتبت إلى مدرستها تعبر لها عن مأساتها، فقد وجدتها الملاذ الوحيد بعدما شتتها الضياع:

«أكتب إليك والفؤاد مجروح أسود، في نفسي ثورة غضب، الزوج هجم علي ليذبحني بسكينة، فهربت إلى الجيران ثم أويت إلى أهلي، وضاع الولد، وما أمر فراق الولد؟ وما أشد إيلام فلذات الكبد؟ كل شيء يهون إلا البعد عن الصغار، جرحي لا يندمل، لا أخشى الفقر بعدما أنفق زوجي ما أنفق في عربدته، استغل حبي له وبرز إلى وجودي كوحش متنمر، أنا الآن أكاد أجن(٢).

لقد استطاعت الأديبة من خلال تصويرها لشخصية هذه المرأة أن تكشف عن أضرار الاختلاط، والاختيار غير المناسب على حياتها الزوجية، وكانت رسالتها تنم عن ثورتها وقلقها وضياعها ورغبتها في البحث عن بر الأمان بعد أن ذاقت - مع من ظنته رجل العصر - الذل والهوان والحرمان.

ولو رحنا نقارن بين شخصية هذه المرأة التي راحت ضحية خزعبلات التقدميين ومخططاتهم الماكرة، وبين شخصية أم سليم في قصة «أبو طلحة الأنصاري(٣) لرأينا البون شاسعاً فهذه تقول لأبي طلحة عندما جاء يخطبها، وكان لا يزال على الشرك:

---

(١) المرجع نفسه / ٨٢ .
(٢) المرجع نفسه / ٨٥ - ٨٦ .
(٣) صور من حياة الصحابة / ٣١٦، والنص من ص / ٣١٧/٣١٨.

«إني أشهدك يا أبا طلحة وأشهد الله ورسوله أنك إن أسلمت رضيت بك زوجاً من غير ذهب ولا فضة، وجعلت إسلامك مهري»..

ثم قالت له ناصحة: «أفلا تشعر بالخجل وأنت تعبد جذع شجرة جعلت بعضه لك إلهاً بينما جعل غيرك بعضه الآخر وقوداً له يصطلي بناره، أو يخبز عليه عجينه»[١]، فأسلم الرجل وكان مهره كما أرادت عِرسه، وعاشا سعيدين في ظل الإسلام.

فرق بين امرأة وامرأة.. فتلك لم يكن همها إلا المتاع واللذة، واقترنت برجل يسعى إلى كأس وغانية فكانت النتيجة كما عبرت القاصة الضياع لابتعادهما عن سبيل الإسلام، و:

إن هدي الإله سبيل فلح وحيد الدرب تاركه يباب[٢]

أما أم سليم فقد أنطقها المؤلف بما نمّ عن إيمانها العميق بالإسلام، القضية الكبرى الخالدة، وعن خروجها من دائرة القيود الأرضية وترفعها عن زخرف الدنيا، وهذه الجزئية الصغيرة «المهر» عرفتنا على الهدف الأسمى الذي تسعى إليه لتنال الرضا والطمأنينة والسمو في الدارين، مما جعلها نبراساً يهدي الأجيال إلى الحق وإلى صراط المستقيم.

* * *

أما شخصية المرأة كشخصية تحسن تَبعّل زوجها وترضي ربها فيه، في أسرة ترفرف عليها راية السعادة فقد عبرت عنها قصص متعددة منها «نفيسة» [٣] التي عرض فيها المؤلف محمد المجذوب صورة للمرأة الصالحة التي غذيت بمكارم الأخلاق، وأحسنت عشرة زوجها، احتضنت أولاده فكانت لهم أماً ثانية، وحدبت عليهم صغاراً وعرفت حقهم كباراً، وأنفقت بلا إسراف ولا تبذير، ولما ابتلاها الله بمرض زوجها رعته حق رعاية، وهي صابرة على الضراء، وكانت تخفي دمعتها وتبدي ابتسامة مشرقة، فلما توفاه الله عرف الجميع حقها وأنزلوها منزلة الأم وغمروها بفضلهم وإحسانهم، فكانت وكانوا مضرب المثل للأسرة الإسلامية.

---

(١) المرجع السابق نفسه. (٢) شريد عفيف / ٨٦ .

(٣) من المجموعة القصصية «طائر يرد الجميل» / ١٢٣.

وهذه أخرى تدعى أم محمد في قصة «واغوثاه»[١] للدكتورة زينب بيره جكلي تستقبل زوجها إثر عودته من سفره بحفاوة وبسمة، وتسارع إلى طعامه، وتحدثه حديثها الشيّق، تحكي له ما رأت وما سمعت، وتروي له من أحاديث الأسرة ما يلذ سماعه، فإذا رأته سئم النفس طويل التفكير سألته عما به:

«أتحس ألماً في جسدك يدعوك إلى الصمت والضجر؟.

- لا، (قالها في حزن وألم).

- أتأمرني بشيء يا بن العم أفرج به عن كربك؟.

- لا حاجة لي إلى شيء.

- استعذ بالله من الشر يا أبا محمد.

- الخير عميم ولله الحمد، ولا شر أصابني في نفسي».[٢]

هذه هي صورة المرأة تعرض بنبرة إيمانية فيها صدق العاطفة وحرارة التعبير.

ولكن بعض القصاص عمدوا إلى الشر يظهرونه بشكل فني مؤثر ليكون عبرة وعظة للقراء، ومن هؤلاء الدكتور «وليد قصاب» في قصته «عيد الفقراء»، إذ جعل المرأة لا تفتأ تطالب زوجها بمتطلبات العيد دون أن تحس بمعاناته، وقد آلمه أن تراعي ابنته الكبرى ظروف معاشه دون أمها، ولما طرق مسمعه كلمة قالها ابنه الصغير لمن سأله عن حاجيات عيده: «لم يحضر لي أبي شيئاً، ولكن أمي أكدت لنا أنه سيعود اليوم ومعه ملابس وحلوى كثيرة»[٣] أحس بدوار فاستند إلى جدار، ثم سُمعت خبطة قوية، فالتف الأولاد حول الرجل، ولما أفاق من إغمائه، كانت الأم قد شعرت بالندم، فطلبت من زوجها أن يسامحها».

وهذه سلبية أخرى من سلبيات الحياة انفعلت لها نفس الأديب «محمود شيت خطاب» فسطرها في قصة «مجالس الذكر» ممزوجة بعواطفه، وهي تحكي حال

(١) من المجموعة القصصية «قدر أم حذر» /٥٥، والنص من ص - ٥٦.
(٢) المرجع نفسه / ٥٦.
(٣) مجلة الأدب الإسلامي م١ ع٣ محرم /١٤١٥ هـ /١٩٩٤م/ ص ٥٤، والنص من ص - ٥٥.

امرأة لم يكن يهمها من حياتها إلا المال، وقد حرضت زوجها على أن يجلبه بأي وسيلة كانت، بل شجعته على السرقة وخطف الأولاد ليبيع لحومهم أيام الحرب العالمية الأولى، فلما افتضح أمره، وقدم إلى المشنقة قيل له: ما آخر رغباتك في الحياة؟ أجاب: أن أقبل لسان زوجتي، وجيء بالزوجة فعض لسانها حتى قطعه، وقال لمن حوله: لقد كانت سبب نكبتي، حثتني على الجرائم الصغيرة، وشجعتني على الجرائم الكبيرة حتى أصبحت مجرماً خطيراً»[١]، فحكم عليها بالإعدام، وتأرجحت جثتاهما معاً تحت حبل المشنقة، فكانا عبرة لمن يعتبر.

أما قصته «قاتل أبيه»[٢] فكانت أشد إيلاماً وأقسى، أتصور الأديب وهو يسطرها قد خاض تجربة شعورية مريرة، إنها تحكي نهاية مأساوية حزينة لأسرة كان عميدها رجلاً قد أنفق عليه والده الكثير، حتى بنى له مسكناً بما تبقى لديه من مال وشرط أن يعيش معه إلا أن زوجته لم تحتمل وجوده معها فغدت تضايقه حتى حرَّمت على الأولاد أن يدخلوا غرفته، ثم خيرت زوجها بينها وبين أبيه، فاختارها، وطرد أباه بعد أن أشبعه ضرباً وتأنيباً، حتى سال الدم من فمه ومات في الشارع، وسجن الابن جزاءً وفاقاً.. ومرت السنون طويلة أفرج بعدها عنه، وفي غمرة الفرحة اصطدمت سيارة ابنه به فسقط أرضاً، وتدفق الدم من فمه ومات كما أمات أباه، وحرمت الزوجة من بعلها بانتقام الله سبحانه وتعالى منها ومنه، لأنها لم تخف الله في حميها.

لقد قدمت لنا هذه القصص شرائح واقعية تصور المرأة في حياتها الزوجية، في إيجابياتها وسلبياتها، وقد بدا من خلالها صدق التعبير والإحساس، وتفاعلت فيها الشخصيات مع الحوادث، التي سارت الهوينى حتى انتهت بما يؤيد الفكر الإسلامي، مما جعل الموقف أكثر عمقاً وتأثيراً في النفس.

وأما صورة المرأة كزوجة ثانية، أو لنقل «تعدد الزوجات» فقد عالجها كتاب القصة الإسلامية أيضاً للرد بأسلوب فني على من اتهم الإسلام في ذلك، وها هو

(١) من مجموعته القصصية: «تدابير القدر» /٨٢ والنص من ص ٨٨.
(٢) المرجع نفسه / ٥١.

الدكتور «نجيب الكيلاني» يتحدث عنها في قصته «حمامة سلام» ويبين عن طريق المفارقة والتناقض أن سبب التعدد كان لاختلاط الأسر في زياراتها، وعدم التزامها منهج الله في سيرتها، وأن التعدد قد يكون خيراً للفرد والمجتمع، وهذه المفارقة عرضها بأسلوب فني أضفى فيه على النص حيوية وصدقاً، فالزوجة الأولى كانت من أسرة مرموقة، لكنها كبرت في السن، وأهملت أمور زوجها، ولما زارته فتاة نضرة في مقتبل عمرها، وكانت خطيبة لابنه، ورأى عناياتها به قارن بينها وبين زوجته، وأحس بسعادة الحياة، فصارح زوجته بالرغبة في الزواج منها، فغضبت وغضب ابنه، لكنه أصرّ على ذلك، فأصرت الأولى على ترك بيت الزوجية وجرى بينهما حديث نم عن آلامها النفسية، قال لها:

«- كوني عاقلة، لن تخسري شيئاً بزواجي، ستظلين سيدة البيت الآمرة الناهية، كلنا طوع يدك.

ضحكت في مرارة وقالت: بل سأخسر كرامتي وثقتي بك، وسيتلوث شرفي وشرف أسرتي، لن أقبل.

- يجب أن تفكري فيما أنت مقدمة عليه.

- دعني وشأني.

- أنت تهدمين بيتك.. لكم أحببتك!!.

- لم تحب إلا نفسك يا عبد الودود.

- والعشرة الطويلة؟

- لقد أقدمت أنت على تلويثها، لم ترحم شيبتي.

- يا امرأة..

- كفى.. يا قليل الخير»[1].

هذه نظرة الزوجة الأولى عرضها الأديب من خلال ما فاهت به، أما الثانية فإنها بدت في القصة تضيق ذرعاً بزواجها ممن هو في مثل سنّ أبيها، لكنها إزاء إصرار

(١) حمامة سلام / ٦٠- ٦١ .

والدها ترضخ للأمر الواقع ثم تستطيع بذكائها وخلقها أن تكسب مودة الزوج والأولاد، بل قلوب أهالي القرية كلها، إذ وسعتهم بعقلها الراجح وعاطفتها الإنسانية الفياضة وجنبت زوجها مخاطرة ثورة أبناء القرية عليه بعدما طالبهم بالديون المستحقة عليهم، في موسم جفاف وقحط، وقد أبرزت القصة دورها الإيجابي حين جعلتها تناقش قرينها في قضية السعادة وتقنعه أن الحب بين الزوجين أسمى من المال، وأن عليه أن يضحي حفاظاً على حياته وعلى سعادة أسرته، حتى قال لها:

«لأول مرة أشعر في حياتي أن نبعاً فياضاً من الحب يتدفق من قلبك الكبير، وينسكب في حنايا روحي الظامئة»[١] وكانت هذه النهاية الحميدة تشير إلى انتصار الخير على الشر، وإلى أثر المرأة في حياة الفرد والمجتمع.

وهذه قصة «قلب امرأة» [٢] تتحدث عن شخصية الزوجة حين يطرق مسمعها رغبة بعلها بالاقتران من أخرى، يعرضها علينا الأديب من خلال حديثه عن أسرة كانت تعيش في سعادة غامرة، لا يعكرها إلا عدم الإنجاب، وفجأة بدأ الزوج يقسو على زوجته، ثم ادعى أنه سيسافر إلى دولة أخرى، فاغتنمت فرصة غيابه وذهبت إلى طبيب نسائي لتتداوى، فأخبرها أن زوجها عقيم لا أمل من شفائه، فأدركت عند ذلك سبب تغير مزاجه، ولما عاد من سفره المزعوم أوهمها أنه تزوج أخرى وخيرها بين العيش معه أو الطلاق، فآثرت أوّلهما، فزمجر في حماقة وسخر منها فضمته إلى صدرها في إشفاق وحنان وقالت:

«لن أتخلى عنك في محنتك».

- لست في محنة.

- أنا أعلم كل شيء.

- صرخ في ذعر: ماذا؟

وهمت أن تُصرِّح له بالحقيقية لكنها أبت أن تهبط بكبرياء الرجل، وتجرعه كأس المرارة والهوان، إنه زوجها الذي تحبه، وبدا أمامها تعساً مسكيناً محروماً عاجزاً، وتدفق نبع الحنان الأصيل من قلبها، وانسكب على لسانها:

---

(١) المرجع نفسه / - ٩٦ .

(٢) من المجموعة القصصية «الكابوس» - ١٠٦ .

– أنت لو تزوجت ثالثة ورابعة فلن أخرج من هنا، لأني فقط أحبك.. وقد يشفيني الله من عقمي.

مال نحوها وطبع على جبينها قبلة حانية، وقد اطمأن باله وقال:

أو تظنين أنني أستطيع أن أتزوج غيرك، كان مجرد امتحان لأتبين مدى صدق ولائك وحبك» [١].

هذه صور شتى للزوجة في خيرها وشرها تعرضها علينا القصة الإسلامية بنبرة إيمانية تتحدث عن تجارب واقعية وقد بان من خلالها ما يجب أن تكون عليه المرأة الصالحة لتكسب مرضاة ربها، وتعيش سعيدة في بيتها، وإن كان ذلك يكلفها معاناة نفسية ومادية أحياناً.

٢- شخصية المرأة أماً:

صورة الأم في القصص الإسلامية كصورتها في واقع الحياة، فهي رمز التضحية وعنوان الرحمة، تشقى ليسعد أبناؤها، وتحرم نفسها لينعم فلذات أكبادها، وتنظر إلى الحياة من منظار أمومتها، وقلما تبدو قاسية على أولادها إن رأتهم ينحازون إلى زوجاتهم، ولكنها سرعان ما يلين قلبها وتهدأ نفسها وتشع خيراً وعطاء..

هذه قصة «قلب أم»[٢] تعرض علينا صفحة من تضحياتها إثر وفاة زوجها ليسعد أبناؤها الذين لم يبق لهم بعد الله إلا حبها وحنانها.

وتلك في قصة «رسالة إلى أبي»[٣] تعاني ضنك العيش بعد طلاقها لتهيئ لوحيدتها حياة هانئة، ولكن ضرورات الحياة تقسرها على أن تضعها في ملجأ لليتامى بعد أن فقدت معيلها، فتحس الفتاة بالمرارة، وتخط إلى أبيها رسالة تعبر فيها عن مأساتها لحرمانها عاطفتي الأبوة والأمومة، وتذكره باليوم الذي طلق فيه أمها، وتبين له أن الشوق برح بها، ولم يخفف وطأته عليها إلا حينما تتذكر أنها ستلتقي غداً بأمها.

---

(١) المرجع نفسه /١١٣-١١٤.

(٢) من المجموعة القصصية «من حولنا» / ١٩.

(٣) مجلة الأدب الإسلامي م٤، ع١٥، ١٤١٨هـ /١٩٩٧م: عمر فتال /٨٢.

أما قصة «وداعاً أجمل الأمهات»[١] فإن كاتبها «خالد الحروب» عرض من خلالها صورتين متباينتين لأمين بينهما مفارقة كبرى، فأمه ذات خلق ودين وحياء، وهذه التي يراها تحتضن صغيرها بحنان كحنان أمه لكنها تعرت تحت الشمس بلا حياء حتى إن الشمس احمرت خجلاً من مرآها فغاصت وراء الأفق.. ونظر الكاتب إلى تحت قدميها فلم ير الجنة.. وإنما رأى الطين كله هناك.

هذه القصة هي لقطة لمنظر حنان، لأم تحتضن صغيرها، صورة الأديب، ثم ذكر شبيهه من أمه، ثم راح يقارن بين هذه وتلك عن طريق تداعي الأفكار فيبين فضل من كانت الجنة تحت قدميها على من كانت بعيدة عن نهج الله، وإن كانت الفطرة واحدة في قلبيهما، وذلك لأن الأثر مختلف متباين في نفوس الأولاد.

أما في قصة «عرف الديك»[٢] فتبدو الأم قاسية على ابنها وأسرته، في الوقت الذي تحتضن فيه ابنتها وأولادها بعد أن سافر زوجها، ولكن الله سبحانه ينتقم من الأم حين يجعل الدجاج يقسو على بيضه.. وأخيراً يحاول الأب وابنته اللذان أحسا بمأساة الابن أن يصلحا بينه وبين أمه حتى تم لها ذلك، والتفت الأسرة بعد عودة الابن حول مائدة الطعام لتبدأ صفحة جديدة من الحياة السعيدة الهانئة.

والمرأة الأم قدوة لأولادها، إن أحسنت وإن أساءت، وقد عرض علينا الأديب عبد الجواد الحمزاوي في قصته «سعاد تكذب»[٣] صورة لطفلة تدعى سعاد تكتشف كذب أمها التي تقول لها: إن العصفورة تخبرها بكل ما تفعله، وذلك حين أخبرها جدها أن سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام هو الذي يعرف وحده منطق الطير، وتصرح البنت بما أحست به، فيدرك الجد خطأ تربية الأم، وينصحها بالعدول عن هذا الأسلوب، ثم يروح يغرس في عقل سعاد معنى رقابة الله سبحانه الذي يعلم كل شيء، حتى اقتنعت سعاد، ووعدت ألا تعبث بحلي أمها.

وفي قصة «الزلزال»[٤] نرى الأم الأجنبية تترك لابنتها حرية التصرف دون أن تقيدها بشرع أو عرف، فتنحرف الفتاة وتضبط مع رجال يتعاطون الخمر، ونساء

(١) مجلة الأدب الإسلامي م١، ع٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م: ص ١٦-١٧.
(٢) المرجع نفسه ع٢٠ ، ١٤١٩هـ: حسني سيد لبيب /٤١-٤٥.
(٣) المرجع نفسه س٢ ع٨، ١٤١٦هـ /١٩٩٥م: ص ٩٦-٩٧ .
(٤) المرجع نفسه ع١ رجب ١٤١٤هـ / ١٩٩٣: أحمد محمود مبارك / ٢٥-٢٦.

لهن علاقة مع الاستعمار، ولا يتحمل الأب المدرس الجامعي التقدمي الذي كان يتحدث عن حرية المرأة هذه الصدمة، ويدرك خطأ ما كان يدعو إليه، فينتحر بعد أن خلف رسالة سجل فيها إكباره لزميله المدرس الجامعي مثله الذي ربى أولاده على الفضيلة، فبنى أسرة قويمة تخرجت منها طبيبة تزوجت من داعية، ومعيد في الجامعة له أثره البناء في خدمة الأمة.

وهكذا كانت القصة الإسلامية وسيلة من وسائل التربية والتسامي بالأخلاق من خلال ما تعرضه من صور شتى تتحدث عن شخصية المرأة كزوجة وكأم، في سلبياتها وإيجابياتها من خلال مسيرة حوادثها، ومواقف شخصياتها، والحوار الذي يجري بينها، والأثر النفسي الذي تتركه في أذهان قارئيها.

٣- شخصية المرأة بين الحب السامي والحب الرخيص:

الحب كلمة سامية المعنى حين تكون العلاقة بين الطرفين نبيلة أو عفيفة، فحب الله ورسوله، وحب الزوج لزوجته، والأم لأولادها، والأخوة في الدين يعمل على توطيد دعائم المجتمع، أما الحب الذي يسعى صاحبه إلى تحقيق لذة أو نزوة فذلك ما لا يرتضيه عاقل أو ذو تقوى ودين.

ولقد ساد التيار الثاني في قصص الخمسينات من هذا القرن، وعد شيئاً حضارياً، حتى إن الدكتورة سهير القلماوي رأت أن المجتمع العربي بحاجة إلى درجة من درجات الحضارة ليستسيغ مثل هذه الموضوعات، وأن المرأة لم تكن من قبل إنسانة كاملة الإنسانية بل كانت إطاراً لموضوعات أخرى.. ولم يرتفع مستواها إلا بعد عصر الصناعة[1].

وهي بهذا تضرب عرض الحائط ما عرفت به المرأة المسلمة من تكريم، وتقبس من مائدة الغرب أفكارها، ولكن الكتاب الإسلاميين تحدثوا عن شخصية المرأة المسلمة وبدت عندهم امرأة سامية الفكر، تؤثر مرضاة ربها ورسوله على متاع الحياة وتتحمل من أجله مرير العذاب.

---

(١) محاضرات عن نظرية الرواية/٧، وينظر لتدهور أوضاع المرأة في المجتمع الأوروبي الصناعي كتاب: «شبهات حول الإسلام» /١٠٦-١١١

هذه (رملة بنت أبي سفيان) [١] في القصة المسماة باسمها يحاول أبوها أن يصدها عن دين الله فما يفلح، فقد تغلغل الإيمان في شغاف قلبها، وكان أقوى من أن تقتلعه أعاصير هوجاء، ولما ضيق عليها هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، فلما تنصر بعلها هناك وباء بخزي الدنيا والآخرة، وخيرها بين الكفر أو الطلاق آثرت الثاني، وعلم الرسول ﷺ بأمرها، فأرسل إلى النجاشي يخطبها، ففرحت فرحاً شديداً، وخلعت على وصيفته التي أخبرتها جميع حليها، ثم تولى النجاشي عقد زواجها، وأوصلها إلى المدينة المنورة معززة مكرمة.

ونتابع سيرة هذه المرأة الفاضلة في أرض المهجر الجديد من خلال قصة «قاتل حمزة» للدكتور نجيب الكيلاني، إذ يعرض علينا أثر حبها لرسول الله ﷺ من خلال قولها لأبيها وهي تطوي الفراش عنه: «هو فراش رسول الله وأنت مشرك نجس، فلا أحب أن تجلس عليه» [٢] وكادت الكلمة تصعق أبا سفيان، ولكنه أدرك من خلالها مدى حب المسلمين لرسول الله ﷺ حباً فاق الدنيا وما فيها.

هذه القصة التاريخية المعروفة استطاع الكاتبان من خلالهما أن يثيرا عواطفنا ومشاعرنا لنتأسى خطا أم المؤمنين في إيثارها مرضاة الله ورسوله، وتلك هي مهمة القاص في تناوله القضية التاريخية[٣] إذ يسير الحوادث والشخصيات لتخدما الفكرة التي أرادها، بشكل يثير فيه أحاسيس القراء علهم يقتدون بها، ويحققون غاية وجودهم على هذه المعمورة.

وهذه صورة أخرى تبين أثر حب الله في تصرف أم حكيم، تعرضها علينا قصة «رجل وامرأة»[٤] من خلال صبر هذه المرأة المؤمنة على استشهاد زوجها ووحيدها في حرب خراسان، حتى إنها قالت للنسوة اللاتي جئن لتعزيتها «إن كنتن جئتن لتهنئتي فمرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن» ثم عمدت إلى فراشها

(١) صور من حياة الصحابة /٣٢٤ .
(٢) قاتل حمزة /٢١٤ .
(٣) ينظر لذلك «النقد الأدبي» لأحمد أمين /٤٨.
(٤) من المجموعة القصصية «قدر أم حذر» /٢٧ والنص من ص ٣٦.

وطوته وقالت: «حرام علي أن أنام على فراشي، وإني ما أحب البقاء إلا لأتقرب إلى ربي عز وجل بالوسائل ليجمع بيني وبين ابني وزوجي في الجنة»[١].

أبعد هذا تدعي د. «سهير القلماوي» أن المرأة كانت رمزاً للحرية المكبوتة، وبرهاناً على الاستغلال المقيت، وشاهداً على انمحاء الإرادة والخضوع لألوان التضحيات في سبيل المال أو السلطة أو النجاح في الحياة[٢].

وهذه امرأة أفغانية تبدي حبها لله ورسوله في قصة «امرأة من أفغانستان»[٣] إذ يستشهد زوجها في حرب الأفغان مع الروس، ويهاجر أبناء المنطقة جميعاً إلا أسرتها، فضلت البقاء لتؤدي دورها في الحياة في خدمة المجاهدين، فكانت تطبخ لهم وترسل الطعام مع ابنها، فلما استشهد بشظية صاروخ وحمل إليها غطته بعشب أخضر، وراحت تتابع مهمتها في تجهيز الطعام، ولما تأخر وصول الطعام إلى المجاهدين جاؤوا يستطلعون الخبر فرأوا كومة مغطاة بالعشب، فسألوا المرأة فأخبرتهم الخبر، فلما سمعوا كلامها ورأوا فعلها أكبروا فيها جهودها وصبرها، وقالوا:

- أين نحن من هذه المرأة الأفغانية؟

لقد استطاع الأدباء أن يعرضوا علينا هذه التجارب الإنسانية بجزئياتها، ليشعرونا بأهمية هذه العاطفة السامية، الحب في الله سبحانه، واطلعنا من خلال ذلك على خبايا نفوس هؤلاء المؤمنات فاستجيشت مشاعرنا حتى تمنينا أن نكون مثلهن، وهذه أهم مهمات الأدباء، ذلك لأن الفن تعبير وجداني يؤثر في سلوك الآخرين فيعدلون منها[٤]، ولئن كانت عاطفة الحب معروفة معهودة فإن طريقة عرضها عرضاً انفعالياً مؤثراً، وتسيير شخصياتها إلى هذه النهايات الحميدة هو الجديد في هذه القصص.

* * *

(١) المرجع السابق نفسه / ٣٦- ٣٧ .
(٢) محاضرات عن نظرية الرواية /٢٢ .
(٣) من المجموعة القصصية المسماة بهذا الاسم ص/ ٧٩ .
(٤) أصول النقد الأدبي /٢٢٨ .

وهناك في الطرف الآخر المظلم حب رخيص يأمر بالفحشاء والمنكر، ويدعو إلى التردي في مدارج الرذيلة، خطته أيد متهتكة تتبع عورات النساء، أو تنغمس في حمأة الفساد من غير ما حياء ولا دين، وكأن أصحابها قد أصيبوا بانفصام فني، أو غربة نفسية، ذلك لأنهم أعرضوا عن مجتمعاتهم فلم يتفاعلوا معها فنياً، وإنما راحوا يصورون مجتمعات أخرى، حتى غدا أدبهم امتداداً لفنون تلك المجتمعات[١].

إن الإسلام دين يدعو إلى التسامي بالكلمة حتى تكون طيبة تساهم في تنشئة الأجيال على المنهج الإسلامي، ولا يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة إن كان السبيل إليها طريقاً ملتوياً غير صالح [٢]، وانطلاقاً من هذا المبدأ فإن أبا عمرو الشيباني قال: «لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الإرفاث لاحتججنا بشعره» [٣]، وقُتِلَ الشعراء: سحيم عبد بني الحسحاس، ووضاح اليمن، ويسار الكواعب لتهتكهم في أشعارهم[٤] سجن الرشيد أبا نواس لكفره في شعره[٥]. وأراد وكيع أن يحذف بعض شعر المتنبي لما فيه من كفر، وغير بعضهم في رواية الشعر مراعاة للدين[٦].

ومن هذا المنطلق فإن الدكتور محمد رجب البيومي دعا إلى حذف كل مجون وتهتك من كتب التراث، وبين أن لا فائدة من قصص ألف ليلة وليلة ومن حكايات الخلعاء عند الجاحظ والأصفهاني، اللذين أسرفا في الحديث عن الأعراض وأهملا جوانب الخير الأخرى، فأثر ذلك على الأحكام النقدية الأدبية والاجتماعية في دراسات تلك العصور، كما ذكر لنا أن كتاب الله خير قدوة لنا في التعبير عن الرفث، وذكر الدكتور البيومي أيضاً أن الأستاذ أحمد رشدي صالح عمل على تخليص ألف ليلة وليلة من فحش القول، فرفع الأمر إلى القضاء المصري، فأقر عمله لأن في الكتاب ما يخدش الحياء، وأصدرت المحكمة قرارها الذي ينص على أن «الكتب التي تحوي روايات عن الجنس وما تفعله العاهرات من التفريط في

(١) سيكولوجية الإبداع /١٧.
(٢) مجلة الأدب الإسلامي م١ ع٣ القصة القرآنية ص /٤٥.
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز /٢٠٢.
(٤) أخبار النساء /٨٩.
(٥) الموشح للمرزباني / ٣٤٨.
(٦) مجلة الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، ع١٢، بعنوان ملامح الاتجاه الديني والخلقي في النقد / ٩٥-١٠١ .

أعراضهن يعد نشره انتهاكاً لحرية الآداب والأخلاق، بل إن المحكمة طالبت أيضاً أن يحذف من كتب التراث كلها ما ينافي الآداب»[١].

وإذا كان الأمر كذلك فإنه ينطبق على القصص الداعرة التي تزين المنكر وتسوق إلى الرذيلة من أمثال قصص يوسف السباعي ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ومن لف لفهم مما يصور المرأة بشكل تشمئز منه النفس، ويندى له الجبين حياء، ثم ما الفائدة من أن يخط إحسان عبد القدوس قصص داعرات فرنسا ولندن وأن يقول عن واحدة منهن «شعرها الأسود الثائر فوق رأسها لا يهدأ ولا يستقر، وكأن كل شعرة منها تبحث عن رجل.. وساقاها يجبرانك على أن تطأطئ رأسك.. وأن جسده قد تهاوى تحت قدميها وشعر وكأنه ذبابة وقعت في شراك» [٢].

أو أن يذكر يوسف السباعي في قصته «قربي شفتيك» أنه كان محموماً من فرط الشوق إلى فتاة أحلامه، وكأن قلبه يكاد يخر راكعاً (وأستغفر الله من هذه الكلمة)، وكان يود أن يندفع ليحتويها ثم كبح جماح نفسه لأن لها زوجاً غيره.. فلما مات بعلها قال لها: «قربي شفتيك واتركيهما تستقران على شفتي صامتتين ساكنتين»[٣].

إن الفن ينأى عن الفحش والمنكر، وللكلمة دورها في الحياة، والفنان لا ينتج لنفسه بل لغيره، فيجب أن يحس إحساسات قرائه، وإن أسمى غاية له أن يهذب العواطف ويرشدها، وأن يوجه الأخلاق إلى مستوى أسمى[٤] لا أن ينحط بها إلى الحضيض.

ولقد رأيت أن من أسباب الانحدار كما عرضها كتاب القصة الإسلامية:

أ- البعد عن المنهج الإسلامي في الحياة:

وقد وضح ذلك د. نجيب الكيلاني من خلال قصته «رأس الشيطان»، إذ تحدث عن أربعة انحرفوا عن جادة الصواب، ولم يراعوا عرفاً ولا ديناً؛ لأنهم كانوا يسعون وراء الشهرة والمال والمنصب الرفيع، ضاربين عرض الحائط كل فكر ديني أو خلقي.

---

(١) مجلة الأدب الإسلامي س٢، ع٢، ١٤١٥ هـ /١٩٩٥/م بعنوان ظاهرة الأدب المكشوف في كتب التراث ص ٢٥-٣٤.
(٢) قصة صانع الحب /٦٤ .
(٣) مؤلفات يوسف السباعي. مجموعة من موكب الهوى/١٥٦، والعبارات من ص/١٨٢-١٩٠.
(٤) في النقد الأدبي - ظلام/٢٠٢ .

وقد سير الأديب حوادثه حتى جعلنا نصل إلى النهاية المشؤومة لكل من بعد عن منهج الله واتخذ الضلال والغي وسيلة للذة في الحياة.

وأول هؤلاء الأربعة هي زوجة الباشا عثمان التي كانت راقصة في ملهى ليلي، ثم تزوجها الباشا وكان يكبرها بخمس وعشرين سنة، وكانت لا تفتأ تطالبه بكلمات تفتح بها نفسها على حد قولها، وهو في شغل عنها، ولهذا بدأت تعاشر صحفياً مقرباً إلى زوجها، وكان هذا يسعى إلى الصيت والجاه، ولم يكن همه إلا المال، حتى إنه طالبها بأجرة ليلة يقضيها معها؛ فلما علم زوجها بخيانتها طردهما من منزله، فتوسلت إلى الصحفي عله يؤويها فقال لها ساخراً:

- من أنت؟

- راقصة سابقة في كاباريه.

- اذهبي إلى ماضيك هناك.

- ألن تأخذني معك.

- اذهبي إلى الجحيم... وتركها ومضى كأنه يفر من وباء[١].

هكذا بلا لف ولا دوران أسمعها كلماته التي تنم عن احتقاره بل احتقار المجتمع بجميع فئاته لهذه المرأة الداعرة، ثم علق الأديب على كلماته: «كأنه يفر من وباء» وأي وباء للمجتمع أشد من هذا الفساد؟.

والشخص الثالث هو رئيس تحرير إحدى الصحف، كان عجوزاً متصابياً لم يتزوج من قبل، لأنه شغل أوقاته بالبحث عن الشهرة، ثم أعجب «بسكرتيرته» الخاصة فصار يأخذها معه في روحاته وغدواته، حتى إنها صحبته إلى مقهى ليلي لا يؤمه إلا علية القوم وبعض الإنجليز، فصار زملاؤها يسمعونها كلمات جارحة مثل: «من كان بلا خطيئة فليرمها بحجر» ثم راودوها عن نفسها فاستعصمت وهددته بقتل نفسها، ولكن نوازع الشر كانت لديه أقوى، فدفعته، فسقط أرضاً، فنقل إلى المستشفى، فنجت منه[٢].

(١) رأس الشيطان /١٨٥- ٢٥٣-٢٦٠ .

(٢) المرجع نفسه / ٨٢ و ١٠٨ - ١١٦.

والرابع هو سلطان بن محروس، فلاح تقرب من الباشا عثمان فصار يشرف على أملاكه، ثم تسلط على أهل القرية واستخدم عاملة في بيته ووعدها بالزواج، فلما قضى منها وطره طردها من المنزل، فانتحرت وسطرت دماؤها قصة مأساة رهيبة.

إن هذه القصص لتصور بمسيرة حوادثها وما تنطق به شخصياتها، وبنهايتهم المأساوية الفساد ومآله، وتبين أن البعد عن منهج الله وشريعته يودي بصاحبه.

أما قصة «قاتل حمزة» للأديب الكيلاني فإنها تبين لنا أن المرأة الماجنة الداعرة قد تتوب من غيها لو صادفت جواً إسلامياً تعيش فيه في أمان وراحة.. فوصال إحدى بغايا مكة كانت تدعي أنها بعملها تؤدي رسالة إنسانية حين تخفف عن الرجال مصابهم بكأس ولذة، ويستنكر وحشي ما تدعيه ويقول لها:

«الدعارة وظيفة إنسانية» أليس هذا عجيباً؟ آه لو حكم محمد مكة لجلدك ألف ألف جلدة، فتجيبه:

– لو حكم محمد مكة لما ارتكبت ما يستوجب الحد، إنه لا يظلم أحداً، إنه يهب الأمن ويكفل الرزق ويحمي الضعيف.. ولا يجعل من الأحساب والأنساب أساس المفاضلة بين البشر.. هذا ما سمعته عنه ياوحشي، والمؤمنون في المدينة يعيشون في ظل هذه المعاني.. أو يحلم الإنسان بأكثر من هذا؟[1]

ثم بدأت وصال تفكر بملاقاة النبي عليه الصلاة والسلام، فلما كان يوم الفتح جاءها وحشي وسألها الخمرة، فقالت: «لن أبيع.. حطمت الكؤوس وأحرقت الفراش الملوث.. أريد أن أغتسل من هذه الآثام والمبادئ العقيمة.. (ولننظر إلى هاتين الكلمتين: الفراش الملوث والاغتسال من الآثام)، فيقول لها وحشي:

– أيتها المومس الرخيصة.

– سامحك الله.

– أتميلين إلى الإسلام؟

(١) قاتل حمزة /٨٧-٨٩ .

- أريد أن أخلو بنفسي، هل تحرمني هذا الحق؟[١]

ومع الصباح كانت وصال تتجه إلى المدينة المنورة لتعب من طهارتها وعدالتها ما تغسل به أدران الماضي.

وهكذا بينت لنا القصة أثر الجو المحيط بالمرأة في نفورها من حياة اللهو والعبث، فوصال عندما سمعت بالعدالة والحرية الحقيقية تطبقان في المدينة المنورة أسرعت إليها، وكانت القصة بتوجيه المفكر الإسلامي تسير إلى هذه النتيجة، حتى تجعلنا ندرك أثر تطبيق المنهج الإسلامي تطبيقاً صحيحاً في تغيير حياة الناس صالحهم وطالحهم.

ب - رفاق السوء:

وهم من البلايا الكبرى التي تودي بحياة الأسر، وقد عرض علينا الأديب الكيلاني في قصته «الرقيق الأبيض»[٢] أثر الصاحب، إذ يوحي رجل لصديقه أن بعده عن المرأة «زهد العارفين» فتثيره هذه الكلمة، ويقرر أن يعاشر البغايا.

وفي قصة «في حضرة ابن طولون» نرى المرأة تنزلق بتأثير صديقة لها بعد سفر زوجها، وقد أوهمتها أن أخاها يريد الاقتران بها فطاوعتها نفسها أن تراه وتتحدث إليه، ثم خدعها بمنطقه ثم كانت الخطيئة بينهما، وفر الرجل بعدها، وتركها تعاني آلاماً نفسية حادة.

أما نتائج هذا المجون في القصص الإسلامية غالباً فهي:

أ- دمار البيوت:

وهو نتيجة حتمية لانشغال الرجل عن أسرته وأولاده، وقد يؤدي إلى الطلاق، لا يباليان بما وراء اللذة، وقد صور لنا هذا يوسف السباعي في قصته «دمية»[٣].

---

(١) قاتل حمزة / ١٩٥ - ٢٠١ .

(٢) من مجموعته القصصية: الكابوس /١٢٦-١٣٢ .

(٣) مؤلفات يوسف السباعي: في موكب الهدى /١٥٦ .

ب - استغلال المرأة لصالح فئات مشبوهة:

عصابات إجرامية أو سياسية.. ففي قصة «في حانة الزنوج»[١] لإحسان عبد القدوس عرض لمأساة فتاة كانت تبكي في الملهى تحت قدمي فتى، وتقول له بين الفينة والأخرى: لا... لا.. ثم أمسك الفتى بذراعها بقوة فصرخت، فتركها، وراح يذرع الأرض جيئة وذهاباً في حركة عصبية، وهي راكعة تحت قدميه تتضرع إليه دون أن يرق قلبه، ثم جذبها إلى صدره وراح يقبلها ويهمس بكلمات كأنه يشرح لها أمراً، إلى أن هزت الفتاة رأسها بالموافقة فقبلها فابتسمت لها، وفي اليوم التالي أعلنت الصحف القبض على هذه الفتاة لارتكابها جريمة قتل وسرقة حلي..

وقد تستغل المرأة لصالح **صفقات تجارية**، وقد حكت لنا هذه القصة «الجو بارد»[٢] التي تتحدث عن رجل يدفع زوجه لقضاء ليلة مجون مع تاجر كبير ليوقع له عقداً تجارياً، وكان يرى في ذلك عملاً بريئاً لا يخل بالشرف ولما ضبطت الشرطة زوجه مع أحد التجار برأها، فلما عادت إلى البيت أخبرته أن التاجر «عبيد» قد نال منها كل شيء ولم تنل منه شيئاً، وحرضته على قتله، فامتنع وقال: «ما جئنا إلى هذه البلاد لنقتل، أتفهمين؟»[٣] فأخرجت له الصك التجاري الموقع، فاختطفه فرحاً به، وشرب الخمرة وانتشى، فاغتاظت المرأة من لا مبالاته بشرفها، وأفرغت في صدره رصاصة، وشعرت حينذاك بالانتصار الحقيقي لكرامتها.

وقد يكون عملها **لصالح الاستعمار**، وهذا أمر أقسى وأمر.. إذ يوقع البلاد تحت براثن العدو، وقد تحدث لنا الأديب نبيل خليل عن هذا في قصته «بيت الراقصة»[٤] التي استمدها من الجو السياسي الذي عاشته بلاده، والأحداث السياسية ملهم الأدباء، والراقصة هذه بغية استأجرت بيتاً في حي فقير، ثم راحت تسقطب أبناءه، فانقسموا بين ناقم عليها، وثائر، وآخر ساكت، أو واقع في شراكها، وكان الشبان المصلحون يحذرون منها، ولا سيما بعدما عرفوا أنها تعمل لصالح الإنجليز، وأنها لا تكف تسأل عن أبناء الحي، وفجأة قتل واحد ممن وقع في حبائلها وكان قد عزم

(١) صانع الحب / ١٨٢.
(٢) الكابوس /٧٤.
(٣) المرجع نفسه/ ٧٩ .
(٤) من المجموعة القصصية: طائر يرد الجميل /٤٥ .

على التوبة، وأقفل التحقيق في الجريمة بظروف غامضة، فقاد الحملة عليها شاب يدعى أحمد وقتل كلبها، فاختفى بعد أمد قصير، ولما كثرت الشبهات حولها ثار أهل الحي في مظاهرة، واقتحموا عليها منزلها، فوجدوها قد هربت.

هذه القصص الثلاث كانت المرأة فيها وسيلة لجرائم عدة، ويشبهها في ذلك أن تستخدم **لصالح فئة سياسية ما**، والأديب الكيلاني يتحدث لنا عن هذا من خلال قصته «الحلم الرائع»[١] التي تحكي عن سجن رجل مفكر وانسياق زوجته وراء أهواء رجال الاستخبارات، ولما أفرج عنه فوجئ بأنها تعد سجنه عاراً، وكان يظن أن الأيام كفيلة بردها إلى الصواب، لكنه تلقى مكالمة هاتفية فيها:

«لقد عفونا عنك لتبدأ حياة جديدة، إن زوجتك عاقلة وجميلة».

ورنت من خلف المتحدث ضحكة ساخرة آلمته، وأحس كأن خنجراً مسموماً طعن به، ولعبت الهواجس في رأسه، ثم تلقى في اليوم التالي برقيات تهنئة كان في إحداها:

«عزيزي وليد، كانت زوجتك تلعب لعبة قذرة مع رجل من رجالات الاستخبارات، المهم أنها نجحت، مبروك عليك. فاعل خير»[٢].

فطلق الرجل زوجته، وخسرت كل شيء في حياتها من جراء انسياقها وراء أصحاب المنافع الخاصة، ولم تدرك ألاعيبهم إلا بعد فوات الأوان.

أما في قصة «رأس الشيطان» فإن ضياء الدين استغل الصحفية صفاء لقتل إنجليزي، فتصرفت تصرفات لا تليق بامرأة مسلمة، تزينت أبهى زينة وخرجت تترنم في الشارع لتلفت انتباه الرجال إليها، وجاءها إنجليزي فحادثها وحادثته، فطلب منها فطلبت منه مالاً فقهقه في مرح ومد يده إلى خصرها فدفعتها، وطلبت المال ثانياً وبينما كان يمد يده إلى جيبه فاجأته عصا غليظة هوت على رأسه وأودت بحياته[٣].

(١) من المجموعة القصصية: الكابوس / ٨٠ .
(٢) المرجع نفسه / ٨٥.
(٣) رأس الشيطان /٢٠٧-٢١٢ .

وعلى الرغم من نبل الغرض إلا أن الإسلام يربأ بالمرأة أن تتخذ وسيلة لغرض ما بطريقة لا إسلامية، فالغاية لا تبرر الوسيلة إن كانت هذه بطريق غير شرعي، أو كانت تعرض المرأة لمثل هذه المواقف الحرجة.

وأخيراً فإن القصة الإسلامية الاجتماعية تحدثت عن واقع المرأة في إيجابياتها وسلبياتها وبأسلوب عف نظيف، بعيد عما يشين كرامتها أو يهدرها، وكانت حوادثها وشخصياتها ترجماناً للفكر الإسلامي الذي يؤمن به كاتبها.

ثانياً: شخصية المرأة في القصة السياسية الإسلامية:

ذكرت من قبل[١] أن القصة بما أوتيت من حرية التعبير وطاقة الاستيعاب تستطيع أن تتغلغل بما تحمل من مضمونات وأفكار وآراء في أعماق القارئ، وتتمكن من عقله وقلبه دون أن يحس بتغلغلها، ومن هنا كان اهتمام أصحاب المذاهب الفكرية والاجتماعية والسياسية عامة بها، وكان اهتمام الكتاب الإسلاميين بها خاصة إذ تحدثوا عنها سياسياً كما تحدثوا عنها اجتماعياً، وأظهروا من خلال ما سطروه دور المرأة السياسي في تاريخنا الإسلامي، ماضيه وحاضره، وسأتحدث عن هذين الجانبين من خلال ما روته القصة الإسلامية.

١- صورة المرأة في تاريخنا الإسلامي القديم:

إن الفنان يستطيع أن يختار أي موضوع ويعرضه بطريقة فنية، فالكاتب يلتزم الإطار الفني الخاص بالقصة، وقد بين القصاص المسلمون دور المرأة السياسي في جهادها حين تستدعيها الظروف لذلك.

فصفية بنت عبد المطلب في القصة المسماة باسمها[٢] كانت تربي أبناءها على البطولة وتقذف بابنها الزبير بن العوام في كل مخوفة، فإن رأته أحجم ضربته، وعلى الرغم من كبر سنها عندما هاجرت، إذ كانت تخطو نحو الستين، فإنها شاركت في يوم أحد فجعلت تنقل الماء وتروي العطاش وتبري السهام، ولما رأت

(١) في مقدمة البحث، والفكرة في قصة الحلبة والمرآة /٥.
(٢) صور من حياة الصحابة / ٣٨٤ .

محاولات المشركين للتصدي لرسول الله طرحت سقاءها أرضاً وهبت كاللبؤة التي هوجم أشبالها، وانتزعت من يد أحد المنهزمين رمحه ومضت تشق به الصفوف وتقول «ويحكم آنهزمتم عن رسول الله؟» ولما رآها النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يردها خوفاً عليها فأبت فتركها.

وفي يوم الخندق رأت يهودياً يتقدم إلى حصن النساء، فأدركت أنه عين للعدو يريد أن يعرف إن كان هناك رجال يحرسونها، فتسبى النساء ويسترق الأولاد، ويكون في ذلك الطامة الكبرى، فشدت حزامها على وسطها وأخذت عموداً وترقبت عدو الله في يقظة وحذر حتى تمكنت من ضربه على رأسه وطرحته أرضاً، ثم حزت رأسه وألقته من أعلى الحصن، فلما استقر في أيدي اليهود قال بعضهم لبعض: «قد علمنا أن محمداً لم يكن ليترك النساء والأطفال من غير حماة» ثم عادوا أدراجهم[١].

وأما أسماء بنت أبي بكر في القصة المسماة باسمها أيضاً[٢] فكانت تصنع الزاد وتعد السقاء وتنقلهما إلى رسول الله وأبيها في طريق هجرتهما إلى المدينة المنورة، وقد تصرفت بذكاء حين ملأت كيساً بحجر، وأوهمت جدها أنه مال كثير خلفه لهم أبوها الصديق رضي الله عنه، وعندما تولى ابنها عبد الله بن الزبير الخلافة وناوأه عبدالملك وأرسل إليه الحجاج محارباً شجعته على المضي لما أمر الله به، وقالت له في حوارها معه:

«إن كنت تعتقد أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر وجالد كما صبر أصحابك الذين قتلوا تحت رايتك، وإن كنت إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت هلكت نفسك وأهلكت رجالك».

قال: ولكني مقتول اليوم لا محالة.

– ذلك خير من أن تسلم نفسك للحجاج مختاراً فيلعب برأسك غلمان بني أمية.

– لست أخشى القتل، ولكني أخاف أن يمثلوا بي بعد موتي.

– ليس بعد القتل ما يخافه المرء، فالشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ[٣].

---

(١) المرجع نفسه / ٣٩٠ .

(٢) المرجع نفسه / ٤٦٣.

(٣) صور من حياة الصحابة /٤٦٧ – ٤٦٨ .

ولما اقترب منها ابنها ليودعها تحسست درعاً وكانت عمياء فنهته عن ارتدائه ليكون إقدامه أقوى، وأوصته أن يرتدي سراويل مضاعفة لئلا تتكشف عورته، فلما قتل صبرت على فراقه راضية، محتسبة الأجر عند الله سبحانه.

وهذه ثالثة تدعى «نورجهان إمبراطورة الهند»[١] تشارك زوجها في تحمل أعباء الحكم، تدرس معه شؤون الجند والرعية، ولما وقع زوجها في أيدي العدو قادت جيشه لإنقاذه، ولكنها خسرت المعركة وأسرت، وأراد محبط خان عدوها أن يضمها إلى زوجها تحت ملاحظته، فتظاهرت أنها في خصام معه وأنها ستفارقه، فبسط لها محبط خان قصره، وأعطاها فيه نفوذاً كبيراً استطاعت من خلاله أن تؤلب عليه قواده فثاروا عليه، ونجت هي وزوجها وعادا إلى دلهي أكثر عزاً وسلطاناً فسلمت لزوجها مقاليد الأمور وتفرغت للمسائل الخيرية ولتعليم النساء.

أما جلنار في قصة «وا إسلاماه» فزوجة شدت أزر زوجها قطز، ورافقته في حروبه مع التتر في عين جالوت، ولما اشتد وطيس المعركة دخلتها وهي ملثمة ووقفت إلى جوار زوجها تدفع عنه ضربات العدو، وعجب قطز من بطولة هذا الفارس الملثم الذي كان يطيح برؤوس العدو إلى أن أصيبت في إحدى الضربات فخرت صريعة بعد أن قالت: صن نفسك يا سلطان المسلمين ها قد سبقتك إلى الجنة، وعرفها قطز من صوتها فقال والدموع تنهمر من عينيه: «وازوجاه، واحبيبتاه» فأحست به ورفعت طرفها إليه وقالت بصوت ضعيف متقطع وهي تجود بروحها:

– لا تقل حبيبتاه، بل قل: وا إسلاماه.

وما لبثت أن لفظت الروح بين يديه[٢].

هذه هي شخصية المرأة المسلمة كما عرضتها القصة الإسلامية السياسية، تحث زوجها وأولادها على الجهاد في سبيل الله، وتشارك في ميدان الوغى حين يستدعي المقام ذلك، مع حفاظها على حيائها وحجابها، فتضرب بذلك المثل للإيمان والثبات؛

(١) مجلة الأدب الإسلامي م٥ ع١٧ ص ٩-١٢: نور جهان امبراطورة الهند: د. محمد رجب البيومي.

(٢) وا إسلاماه /٢٣١-٢٤٠-٢٤١، ويشبهها في ذلك جميلة في قصة فارس حطين للكاتب محمد سعيد العريان، ينظر مجلة الكتاب /١٩٤٨/٧/١ ص٢٨٩.

وقد استطاع الأدباء أن يقدموا لنا هذه الصورة المشرقة من خلال تصرفات الشخصيات ومسيرة الأحداث وبأسلوب مؤثر جعلنا نكبر هؤلاء النساء الفضليات.

ولكن المرأة قد تضعف أحياناً فتؤثر الشهرة على الحق، وهذا ما فعلته «شجرة الدر» [١] إذ تزعمت عرش مصر بعد مقتل توران شاه بن نجم الدين الصالح الأيوبي، ولكن الخليفة العباسي رفض حكومتها وقال: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً، أما سمعتم في الحديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال: لاأفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» فتزوجت إيبك وحكمت باسمه، فلما ضاق بها ذرعاً عزم على الزواج من غيرها، فما علمت بذلك استرضته وأوعزت إلى جواريها أن يقتلنه بالقباقيب في الحمام لتحطم كبرياءه، وتذل رجولته، ثم ندمت على ما فرطت، وعاقبها الله سبحانه فقتلت كما قتل زوجها، والجزاء من جنس العمل، فكانت مثلاً للمرأة التي حكمت أهواءها وانساقت وراءها، ولم ترع شرعاً ولا ديناً، فكانت عاقبة أمرها خسراً.

وهذه صفحة قاتمة أخرى عرضتها قصة «وحشي بن حرب»[٢] لامرأة مشركة حرضت على قتل حمزة عم رسول الله عليه الصلاة والسلام لتشفي الحقد الدفين الذي ملأ قلبها، وكانت كلما مرت بوحشي قال له: «أبا دسمة اشف واشتف» فلما قتل حمزة مثلت به وبالمسلمين، بقرت مع صاحباتها بطونهم، وفقأت أعينهم وجدعت أنوفهم، وصلمت آذانهم، ثم صنعت هند من الآناف والآذان قلادة وأقراطاً وتحلت بها، ودفعت قلادتها وقرطيها الذهبيين إلى وحشي.

وهكذا عرضت القصة الحدث التاريخي عرضاً واقعياً، وأبرزت من خلال جزئية فيه دور المرأة الإيجابي والسلبي في الحياة، وكان العرض ممزوجاً بعواطف الأديب الجياشة، التي تركت آثارها في النفوس والسلوك.

---

(١) في القصة المسماة باسمها لمحمد سعيد العريان، وينظر لموقفها السلبي ص ١١٨ .

(٢) صور من حياة الصحابة /٣٣٣، ويشبهها في ذلك سلافة بنت سعد في حقدها على عاصم ابن ثابت، التي رويت قصتها في المرجع نفسه /٣٧٧ تحت عنوان عاصم بن ثابت.

٢- شخصية المرأة المسلمة في حركات الجهاد المعاصرة :

لا تختلف المرأة المسلمة المعاصرة عن أختها في الماضي فكلاهما قد شع الإيمان في قلبها وصدرت في تصرفاتها عنه، والأديب الذي يتحدث عن هذه وتلك أديب التزم بالإسلام منهج حياة وسلوك، ولهذا سخر حوادث قصصه وأنطق شخصياته، وحملها من العواطف ما ينم عن فكره الإسلامي.

وقد تحدث الأدباء الفلسطينيون عن حركات الجهاد المعاصرة في فلسطين وأفغانستان وفي البوسنة والهرسك، وأبرزوا الدور الإيجابي للمرأة المسلمة مساعدة للمجاهدين، أو حاملة السلاح في وجه العدو الذي انتهك حرمات أراضيها، كما صوروا الجرائم البشعة التي تعرضت لها المرأة المسلمة مما يندى له جبين الإنسانية.

ها هي «علية»[١] فتاة فلسطينية يصيب اليهود ذراعها فيقسم أبوها لينتقمن منه بيده، ولكنه فوجئ بالبندقية تسرق من بيته، ثم تبين له بعد أن ابنته هي التي أخذتها وقتلت بها الصهاينة، وقالت له: «ثق يا أبت العزيز من شيء واحد، ثق أن طلقاتك العشر كلها لم تذهب واحدة منها هباء، لم تخطئ إحداها مرة الهدف»[٢].

وهذه ليلى في قصة «أول البعث[٣]» فتاة تشارك في عمليات الجهاد قدر استطاعتها بل فوق ما تتحمله امرأة، فهي تتدرب على الإسعافات الأولية، ولاتبالي بالموت مهما خوفتها أمها، وتقول لها بكل جرأة «إذا كانت كل أم تخاف على ابنتها مثلك وبطريقتك فكيف سنحررها؟». ثم تذهب الفتاة إلى مراكز تجمع الرجال في الكهوف البعيدة وهي تحمل إليهم الطعام والشراب؛ ولما أصيب أخوها برصاصة أجرت له عملية جراحية، وأخرجت الرصاصة من رجله ثم نقلته إلى مخبأ الشباب في الجبل؛ وعندما عادت رآها صهيوني فسألها أين كنت؟ فأوهمته أنها جاءت من عند جيرانها، وطلب منها ماء ليشرب، فرفضت أن تعطيه إياها وسكبتها أرضاً، وقالت له «أرضنا أحق أن تروى منكم يا كلاب الشوارع الضالة»، فضربها الجندي

(١) و (٢) من المجموعة القصصية طائر يرد الجميل، والقصة لمحمد الخضري عبد الحميد ص ٨١.
(٣) مجلة الأدب الإسلامي م١ ع٢: نعمت الحجي /٩٤، والنص من ص٩٧.

على صدرها فبصقت في وجهه، فأرداها صريعة برصاصة، ولفظت أنفاسها الأخيرة أبية لم تذل لصهيوني غادر.

وفي قصة «المتشرد الأنيق»[١]، حكاية لامرأة فلسطينية كان زوجها محامياً فسجنه الصهاينة، فشاركت هي في جمع التبرعات لحركات الجهاد، فكشف العدو أمرها وداهم منزلها، ولكنها نجت منه إذ كانت في زيارة لأهلها في الأردن، فذهبت إلى الكويت مدرسة، ولما صار ابنها في المرحلة الجامعية أرسلته إلى أهلها؛ وخرج زوجها من السجن ولم تستطع العودة إليه وكان الفراق بينهما.

وأما قصة «وليدة سجن» [٢]، فتحكي ما حل بامرأة أفضت إلى جارتها بأسرار زوجها السياسية، ولما سافرت إلى بلادها قبض عليها العدو الصهيوني في المطار، ووجه إليها تهماً وإهانات كثيرة، وقال لها:

«- ما منكن واحدة تعترف، كلكن كاذبات.. كلكن عاهرات:

- عاهرات؟ وما هذا؟ إنها كلمة كبيرة..

- ألم يعجبك هذا؟ إنها تناسبك وتناسب أمثالك من نساء حماس الشياطين.

- وماذا فعلت حتى تقول لي مثل هذا؟

- اخرسي، يكفي أن زوجك من المبعدين، ستؤخذين إلى المخابرات العسكرية، وهناك أنقذي نفسك مما تورطت فيه.

- أرجوكم أن تدعوني، إن أولادي ينتظرونني.

وبكت وقالت لهم في لهجة متقطعة: وما ذنبي؟»[٣].

هذه صور شتى لجهاد المرأة ومعاناتها من تحديات العدو الصهيوني تنقله لنا القصص الإسلامية بأسلوب مؤثر، ولا سيما حين يحس المرء آثار التشرد والفراق والولادة في السجن من مسيرات الحوادث وحوار الشخصيات، ولا بد أن تترك هذه

(١) من المجموعة القصصية علمتني زوجتي /٥٤ . (٢) المرجع نفسه /٨٨.
(٣) المرجع نفسه /٩٦-٩٩ .

آثارها في النفس؛ فتحثها على متابعة الجهاد حتى يطرد العدو من الأرض السليبة، وهذه هي مهمة القصة السياسية.

ومن أرض الأفغان نتعرف على دور المرأة هناك، وكنا عرفناها تطبخ للمجاهدين وتشغل بهذه المهمة عن ابنها المستشهد الذي لم يوار الثرى بعد[١].

وهذه أم توفي زوجها في جهاده فخافت على ولديها الصغيرين اللذين لم يتجاوز كبيرهما العاشرة من عمره، أن يختطفهما الروس، فيربوهما على غير الإسلام، فهاجرت بهما حفاظاً على عقيدتهما، وقد عانى هذان الصغيران كثيراً، ورأيا في طريقهما الجثث والدماء المسفوكة.. ولم تستطع الصغيرة التي تروي قصة «هجرة هاجر»[٢] أن تتابع حكاية المآسي فبكت بعد أن أبكت العيون وأحزنت الأفئدة.

وهذه عجوز في السبعين من عمرها يطلق عليها اسم «أم الشهداء»[٣] جاءت إلى مخيم اللاجئين في بيشاور تطلب مساعدات وهي تحمل أوراقاً قديمة، وكان ولداها قد استشهدا وخلفا زوجتين وأولاداً، وقد ارتمت لضعفها تحت قدمي الموظف المسؤول عن كفالات اليتامى، ورجته متوسلة مسترحمة، فبكى الموظف المسؤول إذ لم يكن لديه وسيلة لإنقاذها، وعادت المرأة أدراجها دون جدوى، ولما بلغ أمرها أحد المحسنين وقدم المبلغ؛ كانت أم الشهداء قد طواها الثرى..

هذه صفحات من معاناة المرأة المسلمة في تلك الأراضي المجاهدة مليئة بالمآسي والدموع والمعاناة والشقاء الذي كان يفوق ما يحتمله الرجال فضلاً عن الإناث الضعيفات.

وهناك صفحات أكثر قتامة وأشد إيلاماً، تعرضها قصص عاش أصحابها مأساة البوسنة والهرسك، أو سمعوها من التلفاز وقرؤوها في الصحف، وقد عرضت علينا الأديبة زينب بيره جكلي في قصتها «كرة من لحم[٤]» بعض هذه المآسي، فالكرة هي جمجمة شاب مسلم بوسني قتله صربي لأنه تزوج أخته بعدما أسلمت، وكان أخوها سريتين قد قال لها:

---

(١) ينظر لذلك في هذا البحث ص ١٦٤ هامش ٥.

(٢) من المجموعة القصصية: امرأة من أفغانستان / ٨٩.

(٣) المرجع نفسه /٨٢ .

(٤) من المجموعة القصصية علمتني زوجتي /١٦، والنص من ص ٣٩.

«لقد كانت أكبر غلطة أن زوجناك من مسلم، وقد أنجبت منه ولداً، ولكن.. لا.. لن أدعك معه، سنقتله ونعيدك إلى ديننا، لن ندعك تعيشين مع مسلم بعد اليوم مهما كان الثمن.

جحظت عينا إميلا.. كانت تحسب أن معاملة زوجها الرقيقة سوف تهديهم إلى سواء السبيل، ولكن أنى لهم هذا والحقد الصليبي قد ملأ نفوسهم؟»[١].

وأما أخوها بوريسلاف فقد قال لها: «لقد قطعت ثمانية وثلاثين رأس مسلم، وسيكون زوجك عبد الله وأمه تمام الأربعين.

بكت إميلا وقالت: حرام عليكم، ولم هذا الإجرام كله؟

- حرام علينا، أتسمين جهادنا باسم المسيح إجراماً؟

وضحك ضحكة المخمور المنتشي وتابع حديثه: وسأسمي كمالا ابنك بعد مقتل والده سريتكو باسم جدي الذي علمني كراهة المسلمين[٢].

ثم اقتحم الأخوان دار زوجها، وفقئت عينا الصهر بكل قسوة وغلظة، وقال الثاني لأمه: «خذي عيني ابنك، ألست جائعة؟ كليهما ألست تفدينه بعينيك؟ ها هو ذا يقدمهما إليك جزاء وفاقاً».

صرخت الأم من هول ما ترى وتسمع، وأدرك عبد الله بالموت لا محالة، فراح يردد الشهادتين» [٣]، فطعنه طعنة قاتلة وسحب جثته الهامدة، وسحبت معه أمه إلى الشارع لترى أبشع جريمة تنفذ بابنها، وكانت تستغيث وتبكي، ولكن لا مجيب ولا راحم..

«وقال لها بوريسلاف: أيعجبك أن تري ما هو أشد وأقسى، هات كرة القدم لنلعب بها في الساحة، فأسرع أخوه إلى الجثة الهامدة وقطع رأسها، وتداولاه كرة بين قدميهما، وفقدت العجوز رشدها، وانكبت على الجسم الدامي تمرغ وجهها به، فاستل بوريسلاف خنجره وطعنها به طعنات رسم بها الصليب على جسدها، وهي تعانق أحب الناس إليها، ولفظت أنفاسها الأخيرة»[٤].

---

(١) من المجموعة القصصية علمتني زوجتي /١٦، والنص من ص ٣٩ .
(٢) المرجع نفسه / ٤٢ .
(٣) المرجع نفسه /٤٩.
(٤) المرجع السابق: /٥١-٥٢.

أي مأساة تتعرض لها النساء المسلمات، تصورها هذه القصص الهادفة إلى تحريك المشاعر علّ المسلمين يستيقظون.

وهذه صفحة أخرى من مأساة امرأة من البوسنة تحدثنا عنها الأديبة د. زينب بيره جكلي أيضاً في قصتها «لاعقة الدم»[1] أخذت للتعذيب فرأت فيما يسمى بساحة الرياضة.. نساء عاريات عقلن من شعورهن وأعناقهن وهن يتدلين كذبائح مسلوخة..» وجاء دورها فنادت: يا الله، فأجابها الصربي الحاقد: اخسئي ولا تنادي، وتفوه بكلمة الكفر، فأجابته العجوز المسكينة:

- لعنكم الله لعنته لإبليس.

فقال لها مستنكراً: ألي تقولين هذا؟

- وهل أبقيت لنفسك كرامة بعد أن قلت في حق الله ما قلت؟

- سترين الآن الكرامة، أحضروا لها ابنها..

وجيء بالابن المعذب مسلوخ الوجه، فلما رأته صرخت بلا وعي، فقال لها العدو الحاقد: هل آلمك رؤية ابنك هكذا؟ أحضروا الجزار ليسلخ جلده، فقالت وهي تبكي:

- ارحموه، اقتلوه، لا تعذبوه.. اقتلوني قبله، رباه.. يا الله.. ماذا جنت أيدي المسلمين؟

فقال ابنها عمر: اصبري يا أمه.

- أإلى هذا الحد تصل الوحشية البشرية؟

وجاء الجزار وسلخ الجلد بين نشيج الأم وصراخ الابن المعذب، وارتفعت الأصوات إلى السماء وأدخل صاحبها الجنة، وقال القائد الصربي لأمه:

- تقدمي إلى ابنك والعقي دمه.

وكأنما أصابها مس من كهرباء، فقالت وهي تتراجع كالمجنونة:

- لا... لا...

(١) من المجموعة القصصية قدر أم حذر /٣٩.

- العقي دمه وإلا..

- كيف ألعق دمه... لا... لا... لا

- سأضعك على الخازوق..

- أريحوني بالموت.. اقتلوني.. لا حاجة لي بالحياة بعده، أنتم قتلة مجرمون..

- وأنت لاعقة الدم.. وضحك ضحكة المنتقم يحظى بفريسته، وجذبها صربي آخر وأكبها على وجه ابنها حتى مس فمها لحمه وجلده، وإن صراخها ليتعالى في كبد السماء.

وقال جندي خذوهما إلى حظيرة الأطفال.. وهناك رأى الصغار منظر الرجل وأمه، فتعالى صراخهم.. ونادى فتى قد تجاوز العاشرة من عمره والدموع تنهمر من عينيه: جدتي، أهذا أبي؟ من فعل به هذا؟

- نعم، إنه أبوك يا محمد..

- ولم فعلوا به هذا؟

- لأنه مسلم يجاهد الكفار.

وكانت هذه آخر كلمة فاهت بها المسكينة، إذ أطلق عليها الصربي رصاصة»[1].

وسجل التاريخ مأساة المرأة البوسنية، بأسلوب قصصي يتفجر منه القلب دماً، أسلوب مزج الفكرة بالإحساس والحقيقة بالخيال، وعبر عن موقف الكتاب الإسلاميين من هذه المآسي التي يتعرض لها المسلمون ولا يزالون ينكبون، ولا سيما النساء والولدان..

وأخيراً..

فإني حاولت أن أكشف في هذا البحث عن شخصية المرأة المسلمة كما صورها كتاب القصة الإسلامية، اجتماعياً وسياسياً، فهي من الناحية الاجتماعية زوجة تسعى لاختيار شريك حياتها من بيئة صالحة، وإلا لقيت جزاءها ضياعاً وحرماناً، ثم هي بعد ذلك زوجة صالحة، تعنى بأولادها وتعاني من أجلهم، ولا سيما إن فقدت

(١) المرجع نفسه / ٤٦ .

المعيل، أما حين يقترن زوجها بأخرى فإنها تصبر وتحسن تبعل زوجها غالباً، وقد يكون في الزواج من الثانية خير للأمة والمجتمع.

ولو رحنا نقارن بين ما يعرضه التلفاز من صورة للمرأة الناشزة وبين القصص الإسلامي لرأينا البون شاسعاً، وقد تعرضت للحديث عن موضوع الحب وقارنت بينه وبين المجون الرخيص، فالحب أمر سام إذا كان بين العبد وربه، أو بين المرأة وزوجها، أو الابن وآله.. أما إذا كان لقضاء لذة ساعة فهو من شهوات النفس، تردي بصاحبها، وسببه رفاق السوء أو البعد عن منهج الله في الحياة، وقد يؤدي إلى دمار الأسر أو استغلال المرأة لصالح عصابات إجرامية أو سياسية.

وانتقلت بعد إلى تبيان شخصية المرأة المسلمة المجاهدة قديماً وحديثاً في فلسطين وأفغانستان والبوسنة والهرسك، وذكرت مدى ما تعانيه من مآس تفطر القلوب وتدميها، ويندى لها جبين الإنسانية، وقد تعدى الأمر العذاب الجسدي إلى التعرض للعقيدة، وهو أمر أشد وأقسى..

والله المستعان.

المصادر والمراجع

١- أخبار النساء لابن قيم الجوزية: ت د. نزار رضا. منشورات دار الحياة - بيروت لبنان ١٩٧٩م.

٢- أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب: مكتبة النهضة المصرية - دار الاتحاد العربي للطباعة ط٨ / ١٩٧٣م.

٣- امرأة من أفغانستان وقصص أخرى لأحمد منصور: دار ابن حزم - بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٤- تدابير القدر: قصص واقعية هادفة: اللواء الركن محمود شيت خطاب: دار قتيبة ط٢/ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥- الحلبة والمرأة: مجموعة قصصية لمحمد الحسناوي: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - مصر، ط٣ ١٤٠٨هـ/١٩٨٩م.

٦- حمامة سلام د. نجيب الكيلاني: مؤسسة الرسالة بيروت ط٣، ١٤٠٥هـ /١٩٨٤م.

٧- دموع الأمير وقصص أخرى: د. نجيب الكيلاني: مؤسسة الرسالة بيروت ط٤ - ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٨- رأس الشيطان: د. نجيب الكيلاني: مؤسسة الرسالة بيروت ط ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٩- سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ليوسف ميخائيل أسعد: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.

١٠- شبهات حول الإسلام لمحمد قطب: دار الشروق.

١١- شريد عفيف وقصص أخرى: د. زينب بيره جكلي: دار ابن حزم بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٢- شجرة الدر: محمد سعيد العريان: سلسلة اقرأ.

١٣- صانع الحب وبائع الحب: إحسان عبد القدوس: دار مصر للطباعة ط٢.

١٤- صور من حياة الصحابة: د. عبد الرحمن رأفت الباشا: دار النفائس ط١- ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م بيروت لبنان.

١٥- طائر يرد الجميل وقصص أخرى من مجموعة حكايات حواء: حسين الطنوفي وآخرون: دار حواء - الكويت. دار ابن حزم بيروت ط١ - ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

١٦- طبقات الشعراء لابن المعتز: ت عبد الستار أحمد فراج دار المعارف بمصر ط٣ - ١٩٧٦م.

١٧- علمتني زوجتي وقصص أخرى: أم راشد «د. زينب بيره جكلي»: دار ابن حزم بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م - نشر مكتبة دار العلوم - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة.

١٨- فن القصة لمحمد يوسف نجم: نشر دار الثقافة - بيروت ط٥ - ١٩٦٥م.

١٩- في النقد الأدبي لسعد ظلام: مكتبة السعادة ط١ - ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

٢٠- قاتل حمزة: د. نجيب الكيلاني: مؤسسة الرسالة بيروت ط١١ - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٢١- قدر أم حذر وقصص أخرى: د. زينب بيره جكلي: دار ابن حزم - بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م - نشر مكتبة دار العلوم - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة.

٢٢- القصة القصيرة في مصر دراسة في تأصيل فن أدبي: د. شكري عياد: مطبعة النهضة الجديدة - القاهرة - ط ١٩٦٨م.

٢٣- الكابوس مجموعة قصصية د. نجيب الكيلاني: مؤسسة الرسالة - بيروت لبنان ط١ - ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

٢٤- مؤلفات يوسف السباعي: مجموعة مبكي العشاق - في موكب الهوى - أغنيات: نشر مكتبة الخانجي - بالقاهرة - مطابع الدجوي ١٩٧٨م.

٢٥- محاضرات عن نظرية الرواية: د. سهير القلماوي: ألقيت على طلاب السنة التمهيدية للماجستير ١٩٧٣م: أمال جامعية.

٢٦- من حولنا: مجموعة قصصية: محمد سعيد العريان: دار المعارف بمصر ١٩٧٢م.

٢٧- الموشح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ت علي محمد البجاوي ط نهضة مصر. د. ت.

٢٨- النقد الأدبي لأحمد أمين: مكتبة النهضة المصرية ط٤، ١٩٧٢م.

٢٩- وا إسلاماه: علي أحمد باكثير: ط وزارة التربية والتعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة - دار مصر للطباعة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

الدوريات

١- مجلة الأدب الإسلامي: ع١ رجب ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م: قصة الزلزال لأحمد محمود مبارك ص ٢٥-٢٦.

٢- مجلة الأدب الإسلامي: م١ ع٢ - ١٤١٤هـ /١٩٩٤م: وداعاً أجمل الأمهات: خالد الحروب ص١٦-١٧، وقصة أول البعث: نعمت الحجي ص٩٤-٩٧.

٣- مجلة الأدب الإسلامي: م١ ع٣ محرم ١٤١٥هـ /١٩٩٤م: عيد الفقراء: د. وليد قصاب ص٥٤-٥٥، والقصة القرآنية ص ٤٥.

٤- مجلة الأدب الإسلامي: س٢ ع٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م: ظاهرة الأدب المكشوف في كتب التراث: د. محمد رجب البيومي ص ٢٥.

٥- مجلة الأدب الإسلامي: س٢ ع٨، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م: سعاد تكذب: عبد الجواد الحمزاوي ص٩٦-٩٧.

٦- مجلة الأدب الإسلامي: م٤ ع١٥- ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م: في حضرة ابن طولون: د. محمد رجب البيومي ص٨ ، ورسالة لأبي، عمر فتال ص٨٢.

٧- مجلة الأدب الإسلامي: م٥ ع١٧- نورجهان امبراطورة الهند: د. محمد رجب البيومي ص٩.

٨- مجلة الأدب الإسلامي: ع٢٠ - ١٤١٩هـ: عرف الديك: حسني سيد لبيب ص ٤١-٤٥.

٩- مجلة الكتاب: عدد ١٩٤٨/٧/١: فارس حطين: محمد سعيد العريان: ص٢٨٩.

١٠- مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي: ع١٢ - ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، بعنوان ملامح الاتجاه الديني والخلقي في النقد التطبيقي للشعر. أ. د. وليد قصاب/ ٩٧-١٠٠ .